

سورة النور

(تفسير.. ودروس.. وأمطاء)

تجميع وإعداد
د. عبد الحى الفرماوي
الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف

(الطبعة الثالثة)

1427 هـ . 2006 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ]

صدق الله العظيم

قال رسول الله ﷺ :

" علموا رجالكم: سورة المائدة، وعلموا نساءكم: سورة النور "

"علموا النساء: سورة النور"

[السيدة عائشة...رضي الله عنها]

"وتعلموا سورة ..الناس والأحزاب ، والنور"

[عمر بن الخطاب..رضي الله عنه]

افتتاحية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

أما بعد:

فيقول: صاحب الظلال . عليه رحمة الله . هذه سورة النور.. يذكر فيها: النور بلفظه،

متصلا بذات الله [اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] .

ويذكر فيها: النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح..مثلة هذه الآثار في: الآداب والأخلاق ، التي يقوم عليها بناء هذه السورة.

وهي: آداب وأخلاق نفسية وعائلية واجتماعية ..تنير القلب، وتنير الحياة ،يربطها بذلك النور الكوني الشامل: أنها نور في الأرواح ، وإشراق في القلوب ، وشفافية في الضمائر .

وهي: تبدأ بإعلان، قوي حاسم..عن تقرير هذه السورة ، وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، ومن آداب وأخلاق [سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] .

فيدل هذا البدء الفريد: على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في : العقيدة الإسلامية وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية⁽¹⁾.

وقد آثرنا خلال عملنا في هذه السورة : أن نسير مع هذا النور، مستضيئين به، وسائرين على هداه. في استخراج كنوزها، وجمع خيراتها، والاعتبار بآياتها..!!

¹ - سيد قطب...في ظلال القرآن (سورة النور).

دون أن نتعرض للبحوث التي أفاض بها وأجاد فيها العلماء.. من لغوية، أو بلاغية.. الخ. فيما عدا بعض الأحكام الفقهية: التي تعرضنا لها تعرضا خفيفا يقتضيه المقام، وتفرضه آيات السورة الكريمة، ودون دخول . عميق . في تفصيلات هذه الأحكام، ودون عرض لجميع الآراء التي قيلت، بل كنا . غالبا . نكتفي . عند الاختلاف بين الأئمة . بذكر ما نراه راجحا من هذه الأقوال .

وما كنا نعرض . بعد ذلك . إلا لتقديم معاني الآيات بعبارات بسيطة سهلة لا غموض فيها ولا إهمام بها .

مع التركيز على إظهار الترابط والتناسب بين آيات هذه السورة الكريمة ، وموضوعاتها العديدة، التي تحقق هدف السورة الكريمة الذي نتحدث عنه فيما يلي :

وكان نصب عيننا . في كل ما جمعناه وعرضناه . أن نقدم مراد الله تبارك وتعالى.. قدر طاقتنا .. في آيات هذه السورة الكريمة .. بما يساعد على بناء الفرد المسلم، والبيت المسلم، ومن ثم : المجتمع المسلم، لنصل بذلك إلى نهضة الأمة، وخروجها من كبوتها، وتخلصها . دائما من أزماتها .

خاصة : وأن هذه السورة تحمل البشارة بذلك في صورة وعد إلهي... في قوله تعالى: **[وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ]** [سورة النور:55].

ندعو الله سبحانه وتعالى: أن يجعلنا من عباده..الذين يتحلون بما طلب منهم، من:الإيمان ، والعمل الصالح، والعبادة ، ليحقق لهم ما وعدهم به، من : الاستخلاف في الأرض، والتمكين لدينهم، والأمن لهم ولأوطانهم..وأن يغفر زلاتنا، وأن يعفو عن خطايانا، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه .

إنه ولي ذلك والقادر عليه

د. عبد الحى الفرماوى
جَدَّ
حنين أشرف وعُمر شريف

مفاتيح السورة

- اسم السورة.
- عدد آياتها.
- نزول السورة.
- ترتيبها.
- صلتها بما قبلها.
- فضلها.
- هدفها.
- تقسيماتها.
- أبرز موضوعاتها.

اسم السورة

تسمي هذه السورة الكريمة: بـ"سورة النور" (2).

وذلك:

لكثرة ذكر النور فيها (3)...مثل قوله تعالى: [اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] [النور:35].

وكذلك: اشتغالها على ما أمكن، من بيان النور الإلهي..بالتمثيل ، المفيد: كمال المعرفة لنوع الإنسان(4).

هذا...

وإذا كان اسمها " النور"...!!

فإن " النور" يذكر فيها:

تارة.. بلفظه: متصلا بذات الله تعالى: [اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]

وتارة.. بآثاره، ومظاهره في القلوب والأرواح.

2 – أنظر: السخاوي...جمال القراء 37/1، الفيروزآبادي...بصائر ذوي التمييز 334/1.

3 – ذكرت مادة " النور" في السورة : سبع مرات ، في الآيتين 35 ، 40.

4 – أنظر: تفسير القاسمي (س:24).

ممثلة هذه الآثار والمظاهر.. في : الآداب ، والأخلاق، التي يقوم عليها بناء هذه السورة.

وهي : آداب وأخلاق.. نفسية، وعائلية ، وجماعية ، تنير القلب وتنير الحياة.

ويربطها بذلك النور الكوني الشامل: أنها نور في الأرواح، وإشراق في القلوب، وشفافية في الضمائر، مستمدة كلها من ذلك النور الكبير (5).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها

عدد آيات هذه السورة : (64) أربع وستون آية(6)

وعدد كلماتها: (1316) ألف وثلاثمائة وست عشرة كلمة.

وعدد حروفها: (5330) خمسة آلاف وثلاثمائة وثلاثون حرفا(7).

ولقد تعمدنا ذكر هذه الأرقام.. لنبين مدى عناية الله تعالى وحفظه لكتابه الكريم؛ حيث إن آياته وكلماته وحروفه، التي بين أيدينا اليوم ، هي .. التي نزلت على النبي p منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، دون أن ينقص منها، أو يزداد عليها، وصدق الله إذ يقول: [**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**] (8) أي : من التبديل ، والتغير، والزيادة، والنقصان.. الخ.

5 - سيد قطب.. في ظلال القرآن (سورة النور).

6 - أنظر: مكّي بن أبي طالب.. التبصرة ص72، السخاوي.. جمال القراء 209/1 الفيروزآبادي.. بصائر ذوي التمييز 334/1.

7 - أنظر : النيسابوري.. غرائب القرآن ورجائب الفرقان (مقدمة سورة النور).

8 - الحجر: 9

ومعنى ذلك: أن كتابا هذا وضعه، وهذه عناية الله تبارك وتعالى به، حتى بكلماته وبحروفه.. لجدير بأن يُعنى به غاية الاعتناء، صيانة، وحفظاً، وفهماً، وتلاوة، وعملاً بأحكامه، واتباعاً لتشريعته، وتخلقاً بأدابه، وتوصلاً لصالح الحال عن طريقه، وتوسلاً لنوال مرضاة الله تعالى بالتعبد به.

وفي ذات الوقت: فإن ثبات هذه الأعداد لآياته، وكلماته وحروفه كما هي دونما نقص أو زيادة فيها.. أبلغ رد على من تسوّل له نفسه في إثارة أية شبهة حول نصه الشريف.

نزول السورة

من المتفق عليه بين علمائنا الأجلاء: أن هذه السورة نزلت على النبي μ .. بالمدينة المنورة.

ومن المتفق عليه أيضاً: أنها نزلت عقب غزوة " بني المصطلق" ⁽⁹⁾.

وقد نزلت هذه السورة . كما هو واضح من بيان القرآن، نفسه في شأن السيدة عائشة ، رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك من المنافقين، بما تقولوا عليها به من الكذب والبهتان.

وقد حصل ذلك . كما تتفق عليه جميع الروايات المعتمد بها . أثناء رجوع النبي μ وعودته من هذه الغزوة⁽¹⁰⁾، التي وقعت في شهر شعبان من العام السادس للهجرة النبوية.

ترتيبها

من المعلوم: أن لكل سورة من سور القرآن الكريم ترتيبين:

ترتيب في النزول على النبي μ

9 - راجع في هذه الغزوة: ابن هشام.. السيرة النبوية ق2/289 ط الحلبي، المباركفوري.. الرحيق المختوم ص348، وغيرهما من كتب السيرة.
10 - انظر: المودودي.. تفسير سورة النور ص7 وما بعدها.

وترتيب في المصحف الشريف مع غيرها من سور القرآن.

وترتيب السورة في المصحف الشريف: هو الذي بين أيدينا، وفي مصاحفنا ، وهو الذي قام الصحابة رضوان الله عليهم بإثباته في المصحف الشريف، على وفق ما عرفوه من النبي ﷺ ، وما كانوا يسمعون منه خلال تلاوته للقرآن ، وهو نفس الترتيب الذي قرأ به النبي ﷺ القرآن كله على جبريل عليه السلام، وقرأه به . كذلك جبريل عليه السلام على النبي ﷺ ، في العام الأخير من حياة النبي ﷺ .

وأما الترتيب في النزول: " فلا يمكن القطع فيه الآن بشيء، اللهم إلا من ناحية.. أن هذا قرآن مكي.. وهذا قرآن مدني، على وجه الإجمال ، على ما في هذا من خلافاً قليلة.

فأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية، أو كل مجموعة من الآيات ، أو كل سورة : فيكاد يكون متعذراً، ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئاً مستيقناً، إلا في آيات معدودات ، تتوافر بشأها الروايات، أو تقطع بشأها بعض الروايات.

وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة: ومن تصور منهج الحركة الإسلامية، ومراحلها وخطواتها.. فإن قلة اليقين في هذا الترتيب: تجعل الأمر شاقاً، كما أنها تجعل النتائج التي يتم التوصل إليها تقريبية ظنية، وليست نهائية يقينية"⁽¹¹⁾.

وعلى هذا..

فترتيب هذه السورة في المصحف الشريف: بعد سورة " المؤمنون" وقبل سورة " الفرقان".

وأما ترتيبها في النزول . مع مراعاة ما تم ذكره . فإنه يقال: إنها نزلت بعد سورة "الحشر" وقبل سورة "الحج".

صلتها بما قبلها في المصحف الشريف

بالرغم من كون السورة السابقة عليها في المصحف الشريف، وهي سورة "المؤمنون" من السورة المكية، وهذه السورة من السورة المدنية: فإن سورة "المؤمنون" .. تعد بمثابة المقدمة المهيئة لهذه السورة.

وذلك: بحث الناس على الإيمان، وكيفية اكتساب صفاته والتحلي بها، حتى يكون التزامهم بأحكام سورة "النور" عن اقتناع ويقين، ورغبة جادة في نوال مرضاة الله تبارك وتعالى.

ومع ذلك: فإن بين السورتين من وجه التناسب الخاصة.. ما نعرض بعضاً منه، على النحو التالي:

أ_ شدة الترابط بين خاتمة "المؤمنون" وبين فاتحة "النور".

إذ أنه لما أمر الله عز وجل نبيه الكريم بطلب الرحمة والمغفرة، في قوله تعالى: [**وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**] (12).

أتبع ذلك . من فضل رحمته . بسورة .. أنزلها، وفرض فيها أحكاماً، يوصل الالتزام بها والخضوع لها: لنوال غفران الله ورحمته.

ب . إذا كان تعالى.. قد بين في سورة "المؤمنون" بعض صفات المؤمنين، بقوله عز وجل: [**وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ**] (13).

12 - المؤمنون 118.

13 - المؤمنون: 5

فقد بين في سورة " النور "

أحكام من لم يحفظ فرجه، من الزانية: والزاني.

وكذلك: ما يتصل بذلك من شأن ..القذف، واللعان، وقصة الإفك.

كما أمر فيها ..بغض البصر، الذي هو داعية الزنا، والاستئذان في دخول البيوت،
الذي جعل من أجل النظر.

وحت فيها كذلك: على النكاح؛ حفظا للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح
بالاستعفاف.

ونهي فيها: عن إكراه الفتيات على الزنا، كما كان متبعاً في الجاهلية (14).

ج . إذا كان رب العزة سبحانه ..قد بين في سورة " المؤمنون " أنه لم يخلق الخلق عبثاً، بل
للطاعة والامتثال!!..!!

فقد ذكر في هذه السورة..الكثير من الأوامر، والنواهي ، الكاشفة عن الطاعة،
والعصيان.

فضل السورة

هذه السورة: كغيرها من سور القرآن الكريم، فضلها عظيم، وشأنها كبير.

وقد بلغ من فضل هذه السورة:

(أ) أن كان هناك تشديد في وجوب تعلمها.

مثل: ما أخرجه .. سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي، عن مجاهد، قال: قال رسول الله ﷺ "علموا رجالكم سورة "المائدة" وعلّموا نساءكم سورة "النور" وهو مرسل" (15).

وما ورد أن عمر رضي الله عنه.. كتب إلى أهل الكوفة .. "أن تعلموا سورة النساء ، والأحزاب والنور" (16).

وما روي عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: "علموا النساء سورة "النور" (17).

ب) أنه قد اجتمع فيها خصائص القرآن الكريم كلها، على أوضح ما يكون ذلك.

ففيها : البيان، والموعظة، والهداية ، والحق، والعدل، والحكم التكليفي، والتعليل، والتذكير، إلى غير ذلك مما هو من خصائص القرآن (18).

ج) كما أن هذه السورة : نموذج رائع على الآيات البينات، التي أنزلها الله على رسوله . ﷺ

ومن ثم نجد فيها: روائع التشريع، وروائع الأسلوب، وذرى البلاغة.

وإذا كان القرآن الكريم: كله كذلك..!!

فإن هذه الأمور: في هذه السورة ، تكاد تكون أظهر وأوضح.

حيث إنه في هذه السورة، من التصوير ..أروع، ومن التمثيل ..أروع، ومن التشريع ..أروع، ومن الإنذار ..أروع، ومن التبشير ..أروع، ومن التأديب ..أروع.

15 - أنظر: الشوكاني..فتح القدير (مقدمة سورة النور) والألوسي..روح المعاني (مقدمة سورة النور).

16 - الألوسي..روح المعاني (مقدمة سورة النور).

17 - القرطبي..الجامع لأحكام القرآن(مقدمة سورة النور).

18 - سعيد حوى..الأساس(خاتمة سورة النور).

ومن هنا: فإن من فهم هذه السورة، وعرف أسرارها.. أدرك من أسرار البيان القرآني
وأسرار الإعجاز: ما به تشرق أنوار اليقين على قلبه، فتغمره.

إنك تجد فيها: مقاطع كل مقطع منها... له : نكهته الخاصة: وله بداية ونهاية
خاصتان.

وفي كل مقطع : جمال، وجلال ، وأسرار.

أما سورة : اجتمع فيها. من الأناقة والرشاقة في اللفظ والموضوع والتسلسل
والتوجيه.. وما هو النموذج لإدراك أن هذا القرآن آيات بينات⁽¹⁹⁾.

هدف السورة

ولأن هذه السورة .. قد نزلت في السنوات الأخيرة للعهد النبوي، وقد اتضحت معالم
الدولة الإسلامية الوليدة، وتوافر لها من أركان الدولة ودعائمها، .. ثلاثة: الأرض ،
والشعب ، والحاكم..!!

فقد بقي لها الركن الرابع ، وهو الدستور، أو القانون، أو التشريع، الذي تسيير عليه
، ويلتزم شعبها به.

ولذلك: فقد أخذت هذه السورة في تحقيق هذا الركن، وهو تبيان قوانين هذه الدولة
الجديدة، وتوضيح الأحكام التي يلتزم بها، ويسير تحت لوائها هذا الشعب المسلم.

ولئن كان هذا هو هدفها الأساسي..!!

فقد عرضت آياتها هذه الأحكام على بساط من التربية الربانية.

نعم...

التربية لهذه الجماعة ، التي أختارها الله تبارك وتعالى؛ لتقوم على التزامها بهذه الأحكام، وطاعتها لربها، وحفاظها على هذه التشريعات..أركان هذا الدين، ويشتد بهم ساعد هذه الدولة.

نعم...

التربية...!!

التي تشتد في وسائلها...إلى درجة الحدود

والتي ترق في عذوبتها.. إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة.

والتي تصل القلب..بنور الله، وبآياته المبتوثة في تضاعيف الكون، وثنايا الحياة.

والهدف . بهذه التربية . واحد في الشدة واللين، وهو: تربية الضمائر واستجاشة المشاعر، ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة؛ حتى تشف وترف، وتتصل بنور الله.

هذا...

وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة.

بوصفها.

نابعة كلها: من معين واحد، هو العقيدة في الله.

متصلة كلها: بنور واحد، هو نور الله.

نعم..

أُنها تربية : عناصرها من مصدر النور الأول، في السماوات والأرض، نور الله الذي أشرقت به الظلمات، في السماوات والأرض، والقلوب، والضمائر ، والنفوس، والأرواح⁽²⁰⁾.

وبذلك الأسلوب في التربية: تكون الاستجابة فورية ، وعن قناعة كاملة لهذه الأحكام، والقوانين، التي ساهمت بها السورة ، في..بناء الفرد، والأسرة، والجماعة، في ظل هذه الدولة الوليدة،الجديدة.

تقسيم السورة

تتكون آيات هذه السورة الكريمة من: ثلاثة مقاطع⁽²¹⁾.

يعمل كل مقطع منها بآياته البينات: على تحقيق الهدف . السابق بيانه . وبنفس الأسلوب التربوي الرفيع.

وهذه المقاطع كالتالي:

أ) المقطع الأول: وتحتوي آياته البينات على عرض قضايا تشريعية وتوجيهية، واجتماعية.

وهو عبارة عن (34)آية.

ويبدأ من الآية الأولى: **[سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ]** [النور:1]

وينتهي بنهاية قوله تعالى: **[وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ]** [النور:34].

20 - سيد قطب..في ظلال القرآن (مقدمة سورة النور).
21 - أنظر : سعيد حوى..الأساس في التفسير (مقدمة سورة النور - بتصرف).

ونلاحظ: قوة الصلة بين بداية هذا المقطع ونهايته.

ب) المقطع الثاني: وتحتوي آياته الكريمة على عرض قضايا في موضوع العقيدة ،
والكفر والإيمان، والكون ، والحياة.

وهو عبارة عن (12) آية.

ويبدأ من الآية رقم (35) وهي قوله تعالى: [**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ
كَمِشْكَاهِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ
يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**] الآية
وينتهي بنهاية الآية رقم (46) وهي قوله سبحانه: [**لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**] .

ونلاحظ كذلك: قوة الصلة بين بداية المقطع وما فيه من نور، وبين نهايته وما فيه
من هداية.

ج) المقطع الثالث: وتحتوي آياته البينات على عرض.. مواقف وتوجيهات،
وبشارات.

وهو عبارة عن (18) آية.

ويبدأ من الآية رقم (47) وهي قوله تبارك وتعالى: [**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ
وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**] .

وينتهي بنهاية السورة الآية رقم (64) وهي قوله عز وجل: [**أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَبِوَجْهِكُمْ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**]

ونلاحظ ثالثاً: قوة الصلة بين بداية هذا المقطع وما يشير إليه من نفاق وكذب على الله ورسوله وبين نهاية المقطع وما فيه من وعيد إلهي، يفضح به، ويهدد فيه، هؤلاء المنافقين والمكذابين.

هذا..

وإن إسانا . رجلا كان أو امرأة . لا يخرج من دراسة هذه السورة بهدفها التربوي، وتقسيماها الواضحة.. لا يخرج برؤية الإعجاز واضحاً، وبالإيمان كاملاً في مقتضياته السلوكية، والأدبية، والاعتبارية: حظه قليل (22).

موضوعات السورة

هذه السورة الكريمة حافلة بالموضوعات، زاخرة بالأحكام، وذلك لأنها تهدف إلى : تأسيس دولة، وبناء أمة، وفرض قوانين ترسخ دعائم هذه الدولة، وتبين ملامح التعامل لشعوب هذه الدولة، أفراداً وجماعات، حكماً ومحكومين، كما ذكر سابقاً.

وكان لابد من عرض ذلك من خلال موضوعات تقدمها السورة.

ومن هذه الموضوعات:

1- موضوع الزنا وما يتصل به.

(أ) من جعل الزنا جريمة لها عقوبة مفروضة.

(ب) ومن تنفير الله للمؤمنين عن الارتباط بالفاسقين والفاسقات بصلة الزواج.

(ج) ومن فرض حد القذف.

(د) ومن فرض اللعان على من يرمي زوجته بالزنا.

- 2- قصة الإفك وما يتصل بها من التعليمات التي وجهها الله تبارك وتعالى إلى أفراد المجتمع الإسلامي.
- 3- آداب الاستئذان في دخول البيوت.
- 4- غض البصر وحفظ الفرج وما يتصل بذلك من توضيحات وتفصيلات يحتاجها المجتمع المسلم.
- 5- الحث على الزواج بصورة تجعل هذا الحث كأنه شعار يجب رفعه للخروج من الفقر بصوره المتنوعة عن طريقه.
- 6- الحديث عن بيوت الله وربطها بالطهر والنور.
- 7- الحديث عن الكفرة وأعمالهم التي هي كالسراب ، أو كظلمات بعضها فوق بعض.
- 8- الحديث عن ملكوت الله العامر بنوره تعالى والمعروض في الآفاق وفي صحف الكون.
- 9- الحديث عن المنافقين ومخافتهم للأدب الواجب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطاعة والتحاكم.
- 10- وعَد الله تعالى للمؤمنين بإخراجهم من أزماتهم إن حققوا ما طلبه منهم.
- 11- آداب الاستئذان والضيافة في محيط البيت الواحد.
- 12- الإذن للقواعد من النساء بالتخفف من أحكام لباس المرأة للدرجة التي لا تصل بها حد التبرج وذلك من باب التيسير عليهن.

13- الإذن للعجزة من الناس أن يأكلوا من بيوت غيرهم بدون استئذانهم.

وهذا الحكم كان في فترة سابقة وانتهت، لأن آية هذا الحكم وردت على سبب خاص وفي ظروف خاصة وانتهى هذا السبب وانقطعت هذه الظروف.

14- جعل أكل الأقارب من بيوت بعضهم البعض من الأمور المباحة التي لا شيء فيها ولا حرج منها، لزيادة الروابط وتوثيق الأوامر.

15- آداب الجماعة المسلمة مع رئيسها ومربيها وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبصفة عامة (23) فإن موضوعات هذه السورة تعرضت لأمّهات من القضايا الاجتماعية والسلوكية والإيمانية والأخلاقية، ذات تأثير كبير على المجتمعات البشرية بصفة عامة وعلى المجتمعات الإسلامية بصفة خاصة.

وللمرأة من هذه الموضوعات حظ كبير..مما يتعين معه . كما تشير الآثار - على الرجال والنساء أن يدرسوا هذه السورة.

تفسير السورة

مقدمة السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

[سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ]

هذه الآية: فاتحة سورة النور، ومقدمتها.

ويبين الله تعالى فيها : أن سورة النور..سورة عظيمة جامعة لجملة من الآيات البينات والأحكام الواضحات.

ولذا يجب الاعتناء بها، والاهتمام بشأنها، ومعرفة ما فيها، كما هو واجب في غيرها من السور القرآنية.

وقد وصفها الله سبحانه وتعالى: بأنه منزلها، وأنه فرض ما فيها من أحكام وتشريعات، وأنه- ثالثا- أنزل فيها آيات بينات ودلائل واضحة.

وأن الغرض من كل ذلك: هو التذكير والدعوة للعمل بموجب ما في هذه السورة.

وفي الآية : إعلام وتنبيه وبعده أمور:

الأول: -أنه تبارك وتعالى- فرض ما فيها من الأحكام..من حلال وحرام، وأمر ونهي وحدود ، وتشريعات، عليكم، وعلى من بعدكم، إلى يوم القيامة.

الثاني: أنه عز وجل أشار بقوله تعالى : [آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ] إلى ما فيها من دلائل التوحيد، بعد حديثه عن الأحكام.

وهذا هو الواضح في آيات السورة: حيث ذكر المولى في أول السورة أنواعا من الأحكام والحدود، وفي آخرها دلائل التوحيد⁽²⁴⁾.

الثالث: أن الغرض من كل ذلك، في هذه السورة كما في غيرها من سور القرآن الكريم هو التذكير والدعوة للعمل بكل ما فيها: من أحكام، وتشريعات وآداب.
هذا..

وبعد هذه المقدمة الموجزة، والإشارات المجملية، إلى ما في السورة: تبدأ الآيات الكريمة في البيان، ويتم شرحها وتفسيرها، بعون الله تعالى على النحو الآتي في الصفحات التالية.

القسم الأول

(أحكام.. وتربويات

(من الآية 2 حتى نهاية الآية 34)

- الحكم الأول: حد الزنا.
- الحكم الثاني: حكم نكاح الزواني.
- الحكم الثالث: حد القذف.
- الحكم الرابع: حد اللعان.
- الحكم الخامس: أحكام حادثة الإفك.
- الحكم السادس: آداب الاستئذان في دخول البيوت.
- الحكم السابع: حكم النظر.
- الحكم الثامن: الحث على الزواج.
- الحكم التاسع: المكاتبة.
- الحكم العاشر: الإكراه على الزنا.
- تعقيب.

الحكم الأول

يقول ربنا تبارك وتعالى:

[الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]

قبل نزول هذه الآية الكريمة.. كان حد الزنى على من يباشر هذه الفاحشة:

هو الحبس للنساء في البيوت، حتى يتوفاهن الموت.

والإيذاء بالضرب والتفريع للرجال، حتى يتوبوا.

عملا بقوله عز وجل: [وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (15) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا] (25).

فلما نزلت سورة النور، وفيها هذه الآية الكريمة بينت نهاية الحكم السابق المذكور في آيات سورة النساء.

وقد بين الله - سبحانه - في هذه الآية : أن حد الزاني والزانية .. أن يجلدا مائة جلدة.

وهذا: عام في كل زان.. مسلما كان أو كافرا، محصنا كان أو غير محصن، حرا كان أو غير حر (26).

ولكن: أجمع أهل العلم على تخصيص هذا العموم.. بالبكرين الحرين (27).

وأما الزاني إذا كان محصنا: فحده الرجم، خلافا لقوم من أهل الأهواء، حيث زعموا أن حد كل زان الجلد، وسنناقشهم بعد قليل.
وذلك لثبوت الرجم.

أولا: يقول النبي P فيما رواه عبادة بن الصامت "خذوا عني" خذوا عني .. قد جعل الله لمن سبيلا، البكر بالبكر، جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب، جلد مائة والرجم" (28).
ثانيا: بفعل النبي P .

1- " عن أبي هريرة رضي الله قال: أتى رجل رسول الله، وهو في المسجد، فناده

، فقال: يا رسول الله.. إني زنيت..!!

فأعرض عنه.. حتى ردّ عليه أربع مرات.

فلما شهد على نفسه أربع شهادات: دعاه النبي P فقال: أبك جنون؟

26 - محمد بن علي الموزعي.. تيسير البيان لأحكام القرآن [سورة النور.. الآية 174] تحقيق: أحمد المقرئ.

27 - القرطبي.. الجامع لأحكام القرآن "النور.. الآية 1".

28 - مسلم. ك الحدود باب حد الزنى وأبو داود، والترمذي.

قال: لا

قال: فهل أحصنت..؟

قال: نعم.

فقال النبي ﷺ : أذهبوا به، فارجموه" (29).

2- وعن جابر بن عبد الله الأنصاري .. أن رجلا من أسلم ، أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى فشهد على نفسه أربع شهادات فأمر به رسول الله ﷺ فرجم، وكان قد أحصن" (30).

3- وقد رجم ما عزا والغامدية(31).

هذا...

وقد رجم .. أبو بكر وعمر، وعلي رضي الله عنهم جميعا.

عن عبد الله بن عباس قال:

قال عمر بن الخطاب، وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ : إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم(32)، قرأناها، ووعيناها، وحفظناها.

فرجم رسول الله ﷺ !!..

29 - البخاري..ك الحدود، باب لا يرمج المجنون والمجنونة.

30 - البخاري ..ك الحدود ، باب الرجم المحصن ومسلم..ك الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى .

31 - أنظر صحيح الإمام مسلم..ك الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى .

32 - وهي الشيخ والشيخة : إذا زنا فارجموها ألبتة، وهي: مما نسخ لفظه، وبقي حكمه.

ورجمنا بعده..!!

فأخشى إن طال بالناس زمان.. أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله؛ فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله.

وإن الرجم في كتاب الله: حق على من زنى، إذا أحصن من الرجال، والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل، أو الاعتراف" (33).

وعن سلمة بن كهيل قال: سمعت الشعبي يحدث:

عن علي رضي الله عنه .. حين رجم المرأة يوم الجمعة، وقال رجمتها بسنة رسول الله ﷺ (34).

ثم ظل فقهاء الإسلام في كل عصر وفي كل مصر مجمعين على كونه حكماً ثابتاً وسنة متبعة وشريعة إلهية قاطعة، بأدلة متضاربة لا مجال للشك فيها أو الارتياب، وبقي هذا الحكم إلى عصرنا هذا لم يخالف فيه أحد إلا فئة شاذة من المنحرفين عن الإسلام هم (الخوارج) حيث قالوا: إن الرجم غير مشروع وسنين فساد مذهبهم فيما يأتي (35).

أدلة الخوارج والرد عليها:

استدل الخوارج على أن الرجم غير مشروع بأدلة ثلاث هي أو هي من بيت العنكبوت نلخصها فيما يلي:

أولاً: قالوا الرجم أشد العقوبات فلو كان مشروعاً لذكر في القرآن، ولما لم يذكر دل على أنه غير مشروع.

33 - مسلم..ك الحدود، باب رجم الثيب في الزنا.

34 - البخاري..ك الحدود ، باب رجم المحصن.

35 - أنظر : محمد على الصابوني ..روائع البيان(سورة النور..المحاضرة الأولى).

ثانيا: إن حد الأمة نصف حد الحرة [فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ] (36)، والرجم لا يتنصف فلا يصح أن يكون حدا للحرة.

ثالثا: إن الحكم عام في جميع الزناة وتخصيص (الزاني المحسن) من هذا الحكم مخالف للقرآن.

هذه هي خلاصة أدلتهم وهي في الواقع تدل على جهلهم الفاضح وعدم فهمهم لمهمة الرسول ﷺ أو سوء إدراكهم لأسرار القرآن ومقاصده، وذلك منتهى الجهل والغباء.

الرد على أدلة الخوارج:

وقد رد أهل السنة والجماعة على الخوارج بأدلة دامغة تقصم ظهر الباطل، وتخرس كل أفاك أثيم نلخصها فيما يلي:

أولا: إن عدم ذكر الرجم في القرآن لا يدل على عدم المشروعية.. فكثير من الأحكام الشرعية لم تذكر في القرآن، وإنما بينتها السنة النبوية، والله تعالى قد أمرنا باتباع الرسول والعمل بأوامره [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا] (37) والرسول مبلغ عن الله عز وجل ، وكل ما جاء به إنما هو بوحى سماوي من العليم الحكيم [وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ] (38)، وكيف يكون الرجم غير مشروع وقد رجم ﷺ ورجم معه أصحابه وبين ذلك بهديه وفعله؟.

ثم إن مهمة الرسول ﷺ قد بينها القرآن بقوله تعالى: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (39) وليس قول الرسول "خذوا عني خذوا عني

36 - النساء:25،

37 - الحشر:7.

38 - النجم:3.

39 - النحل:44.

قد جعل الله لمن سبيلا.. وفيه: والثيب بالثيب جلد مائة والرجم" ليس هذا القول إلا من البيان الذي أشار إليه القرآن وهو نص قاطع على حكم الزاني المحصن وقد أشار p في الحديث الشريف بقوله: "ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه"⁽⁴⁰⁾، إلى أن سنته المطهرة بوحى من الله.. فثبت أن كل ما جاء به الرسول هو تشريع من الله، وأنه واجب الاتباع.

ثانيا: إن قوله تعالى: [**فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**] ليس فيها دليل على ما قاله الخوارج من عدم مشروعية الرجم، فإن الآية الكريمة قد اشارت إلى أن المراد بالعذاب هنا (الجلد) لا (الرجم) بدليل التنصيف في العقوبة والله تعالى يعلم أن الرجم لا ينصف ولا يمكن للناس أن يمتيتوا إنسانا نصف موتة فدل (العقل) و (الفهم السليم) على أن المراد بهذه العقوبة الجلد لا الرجم.

فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة، وتجلد الحرة البكر مائة جلدة، والسر في هذه التخفيف على (الأمة) دون الحرة أن الجريمة من الحرة أفظع وأشنع لكون الحرة في مأمن من الفتنة وهي أبعد عن داعية الفاحشة والأمة ضعيفة عن مقاومتها فرحم الله ضعفها وخفف العقاب عنها.

ثالثا: وأما دعواهم أن الحكم عام، وتخصيصه مخالف للقرآن فجهل مطبق ألا ترى أن كثيرا من الأحكام جاءت عامة وخصصتها السنة النبوية، مثل قوله تعالى [**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**]⁽⁴¹⁾، فإن هذا اللفظ عام يشمل كل سارق حتى ولو كانت سرقة لشيء حقير (وتافه) وعلى دعواهم ينبغي أن نقطع يد من

40 - هذا جزء من حديث نبوي شريف هو من معجزاته p وفيه إشارة إلى هذا الفريق من الناس الذين ينكرون ما ثبت بطريق السنة النبوية والحديث كما روي في الصحاح: "يوشك أحدكم جالسا على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندري ما وجدنا وما لم نجد لم نأخذ..ألا وإني أوتيت القرآن ومثله مع" أو كما ورد.

سرق فلسا أو إبرة، مع أن السنة النبوية قد خصصت هذا الحكم وقيدته بربع دينار أو ما قيمته عشرة دراهم، وكذلك قوله تعالى: [**وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ**]⁽⁴²⁾، لم تنص الآية على حرمة الأم والأخت من الرضاعة، مع أن الرسول μ بين أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، فيجب أن تكون حرمة (ال بنت من الرضاعة) مخالفة للقرآن بموجب دعواهم، والقرآن نهي عن (الجميع بين الاختين) فمن قال بحرمة الجميع بين العمة و بنت أخيها، أو الحالة و بنت أختها يجب أن تحكم عليه بمخالفة القرآن.. وهذا جهل واضح لا يصدر من مسلم عاقل .

قال العلامة الألوسي في تفسيره:

(وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم، ومن تقدم من السلف وعلماء الأمة وأئمة المسلمين على أن المحسن يرمم بالحجارة حتى يموت، وإنكار الخوارج ذلك باطل، لأنهم إن أنكروا حجية إجماع الصحابة فجعل مركب، وإن أنكروا وقوعه من رسول الله μ لإنكارهم حجية خبر الواحد فهو بعد بطلانه بالدليل ليس مما نحن فيه لأن ثبوت الرجم منه عليه السلام (متواتر) المعنى، وهم كسائر المسلمين يوجبون العمل بالمتواتر (معنى) كالمتواتر (لفظاً) إلا أن انحرافهم عن الصحابة والمسلمين أوقعهم في جهالات كثيرة ، ولهذا حين عابوا على عمر بن عبد العزيز القول بالرجم من كونه ليس في كتاب الله تعالى ألزمهم بأعداد الركعات ومقادير الزكوات، فقالوا: ذلك من فعله μ والمسلمين فقال لهم: وهذا أيضا كذلك⁽⁴³⁾ .

ومراده أنهم لما احتجوا عليه بعدم وجود الرجم في القرآن سأهم عن عدد وكعات الصلاة هل هي مذكورة في القرآن؟ وعن مقدار نصاب الزكاة وشروط وجوبها ، هل هو موجود في القرآن؟ فلما أقروا بأن هذا ثبت من النبي μ ومن فعل المسلمين أقام عليهم الحجة بذلك.

42 - النساء: 23.
43 - روح المعاني (النور.. الآية 2).

شهادة صادقة وبصيرة نافذة:

وكأني بالفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه، قد ألهم أمر هؤلاء الخوارج فكشف نواياهم وأطلع الناس على خبث عقيدتهم فخطب على المنبر وكان فيما قال:

(إن الله بعث محمدًا ρ بالحق وانزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم يعني بما قوله تعالى: [الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم] فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله ρ ورجمنا بعده وأخشى أن يطول بالناس زمان فيقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل في كتابه، ألا وإن الرجم حق على من زنى إذا أحصن من الرجال أو النساء وقامت البينة أو كان حمل أو اعتراف، والله لولا أن يقول الناس زاد في كتاب الله لكتبها⁽⁴⁴⁾).

ثم..

ثم.. اختلف العلماء في مسألتين:

(الأولي) هي: الجمع بين الجلد والرجم في حق المحصن.

فقال فريق منهم: بقاء الآية على عمومها. كما ذكر سابقا. ولذا: أوجبوا الجمع بين الجلد مع الرجم.

ومن هؤلاء: الحسن، وأحمد وإسحاق، وداود.

دليلهم..

حديث: عبادة بن الصامت (45).

وكذلك: ما رواه أحمد.. أن عليا، رضي الله عنه، جلد الهمدانية يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، وقال: أجلدها بكتاب الله وارجمها بسنة رسول الله (46).

وقال الجمهور: بنسخ الجلد عن المحسن، وبذلك، فلا يجمع بين الجلد والرجم، إنما يكون الرجم فقط.

دليلهم...

أن النبي (رجم ما عزا، ولم يجلده.

وأنه: أمر أنيسا أن يغدو على امرأة الرجل فإن اعترفت فليرجمها ولم يأمره بجلدها (47).

ومعلوم: أن حديث عبادة بن الصامت قبلهما؛ لقوله (خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله هن سبيلا"

فيكون الجلد . بذلك . منسوخًا

(الثانية) التغريب مع الجلد، في حق غير المحسن.

فقال الشافعي: يجمع بين الجلد والتغريب.

دليله...

حديث عبادة بن الصامت ، وغيره..

45- انظر ص 28

46 - مسند أحمد/1/93.

47 - انظر الرواية في: صحيح مسلم ..ك الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنى.

ولشوت ذلك عن أي بكر عمر وعثمان وعلي وغيرهم (48).

وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجمع بين الجلد والتغريب .

دليلهم...

أن الزيادة على النص: نسخ ، والكتاب.. لا ينسخ بخبر الواحد.

وأن عمر رضي الله عنه، نفى رجلا ، وقال: لا أنفي بعده.

وقال مالك: يجمع بين الجلد والتغريب في الرجل، دون المرأة؛ لأن في

تغريبها.. تعريضها لما هو أكثر من الزنى (49).

وبعد..

فآية الكرمة: [**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**] !!..

خطاب للأمة..

وتكليف للإمام أو الحاكم، بإقامة هذا الحد؛ لأن إقامة الحد من الدين، وذلك واجب الكل، إلا أنهم لا يمكنهم الاجتماع لإقامة هذا الحد..ومن هنا: يكون الإمام ، أو الحاكم نائبا عنهم في ذلك.

وهي تقرر: أن الزانية ، البكر، البالغ، العاقلة، وكذلك الزاني: يجلد كل منهما . حدا للزنى . مائة جلدة ، حسب البيان الذي تم ذكره.

48 - أنظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (النور:1).
49 - الموزعي ..تسير البيان لأحكام القرآن (النور: الآية 174).

وبلاحظ:

(أ) أن الضرب يكون على الجلد، وليس بالضرورة تعرية المجلود من ثيابه.. ولكن من الضرورة : أن يبتعد عن الوجه والسواتين.

(ب) أنه لا ينبغي أن يكون هناك رافة، أو مجاملة، أو تهاون أو تراخي أو إهمال، في تنفيذ هذا الحد؛ لأنه (دين الله) أي حكمه وشرعه.

ولذلك: يُحْتَرَبُنَا - تبارك وتعالى - على الاهتمام بتنفيذ الحد على الوجه الأكمل، بعبارة تدعو إلى حسن الامتثال، والمصارعة في التنفيذ ، حيث يقول [**إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**] .

(ج) أنه لا بد أن يحضر ويشاهد إقامة هذا الحد طائفة من المؤمنين، الصالحين، المصدقين بالله تعالى، ويكفي في عددهم من أربعة إلى أربعين كما يقول ابن عباس رضي الله عنه.

وهذا: ليحدث الإعلان عن إقامة حدود الله، وتنفيذ شريعته من جهة ، والتخويف والتنفير للمجتمع من ارتكاب هذه الفاحشة من جهة أخرى، وكذلك لتدعوا لهم هذه الطائفة بالتوبة والرحمة.

(د) أن الله تعالى قدم ذكر المرأة على الرجل في هذه الآية لأن الزنا في النساء أكثر معرفة وفضيحة، كما أنه أشد ضرراً لأجل الحمل، وأيضاً لأن المرأة لو لم تتمكن من نفسها ما تم الزنا.

(هـ) أن الآية تفيد: أن هذا الأمر الإلهي بجلد الزناة.. مطلق في جميع الأحوال.

ومعلوم : أن حال الإنسان.. يختلف بالصحة والمرض والحر والبرد، وغير ذلك.

ولهذا...

ذهب قوم من العلماء إلى حمل هذا الأمر على إطلاقه، فأقاموا الحد على الزاني في جميع الأحوال.

ومن هؤلاء أحمد، وإسحاق.

ودليلهم...

أن الحد: فريضة واجبة، فلا تؤخر عن وقتها.

ولأنه : أبعد عن الرافة بالزاني، والله يقول: [**وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ**] .

وثالثا: لأن عمر رضي الله عنه " أقام على قدامة وهو مريض "

وذهب الجمهور: إلى تقييد هذا الإطلاق بالمعنى فلا يقام الحد على الزاني إلا عند اعتدال الحال والهواء.

دليلهم..

الخوف عليه من الهلاك.

شهادة الأصول ..بتأخير الفرائض عند خوف الهلاك(50).

ثم يأتي بعد هذه الآية الكريمة أيها القارئ العزيز، بتشيع المولى عز وجل، للزنا والتشيع عليه، والتنفير منه فيما يلي:

الحكم الثاني: نكاح الزواني

يقول تبارك وتعالى:

[الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ]

قدم المهاجرون إلى المدينة، وفيهم فقراء ليست لهم أموال، والمدينة غالية السعر، شديدة الجهد، وبها نساء بغايا مسافحات، يؤجرن أنفسهن للزنى، وهن يومئذ أغنى أهل المدينة.. فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين فقالوا: لو أنا تزوجنا منهن وعشنا معهن، إلى أن يغنيننا الله عنهن..؟

واستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك..!!

فنزلت هذه الآية.

وفيها : حرم الله نكاح الزانية ، صيانة للمؤمنين عن هذا القبح الشنيع، وهو الزنى⁽⁵¹⁾.

ومعنى الآية: أن الخبيث الذي من شأنه الزنى لا يرغب في نكاح الصالحات من النساء، وإنما يرغب في خبيثة من شكله، أو في مشركة.. والخبيثة المسافحة . كذلك . لا يرغب في نكاحها الصالحون من الرجال، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين.

ولذا: فالآية تزهيد في نكاح البغايا؛ إذ الزنى: عدل الشرك في القبح، والإيمان قرين العفاف والتحصن.

وبلاحظ:

(أ) أن المولى عز وجل قدم في هذه الآية (الزاني) على (الزانية) عكس ما كان في الآية السابقة.

51 - الواحدي..أسباب النزول بتحقيق : السيد أحمد صقر..(النور الآية :3).

وذلك : لأن الآية هنا في موضوع النكاح، ومن المعلوم.. أن أمر النكاح بيد الرجل، وهو أصل فيه، منه يبدأ، وبه يتم، ولذلك قدمه في الذكر على المرأة.

ب) أن هذه الآية : قد نسخت بقوله تعالى: [وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ] [النور: 32] حيث دخلت الزانية في أَيْامَى المسلمين.

وبذلك: فإن الحكم بتحريم نكاح الزانية.. قد نسخ، وأجاز المشرع الزواج منها. وهذا القول: عليه أكثر العلماء.

وأهل الفتيا يقولون: إن من زنى بامرأة فله أن يتزوجها، ولغيره - كذلك - أن يتزوجها⁽⁵²⁾.

وروي: أن رجلا زنى بامرأة في زمن أبي بكر رضي الله عنه، فجلدهما مائة جلدة، ثم زوج أحدهما من الآخر، ونفاهما سنة.

وروي ذلك: عن عمر، وابن مسعود، وجابر، رضي الله عنه.

ج) أن الآية: جاءت عقب آية حد الزنى، للتنفير منه، والإبعاد عنه، وإنقاذاً للناس من ضرره، ونجاة للمجتمع من خطره.

ولذلك : روي عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ρ قال: " يا معشر الناس.. اتقوا الزنى، فإن فيه ست خصال: ثلاثة في الدنيا، وثلاثة في الآخرة فأما اللواتي في الدنيا: فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما اللواتي في الآخرة: فيوجب السخط ، وسوء الحساب، والخلود في النار."

د) أن الإسلام (53) وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعلة المستنكرة الشائنة لم يكن يغفل الدوافع الفطرية أو يجارها.. فالإسلام يقدر أنه لا حيلة للبشر في دفع هذه الميول، ولا خير لهم في كبتها أو قتلها، ولم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعية التي ركبها الله في كيانهم، وجعلها جزءا من ناموس الحياة الأكبر، ويؤدي إلى غياته من امتداد الحياة، وعمارة الأرض، التي استخلف فيها هذا الإنسان.

إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفوق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلى إقامة بيت وبناء عش، وإنشاء حياة مشتركة، لا تنتهي بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة! وأن يقيم العلاقة الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية التي تجعل من التقاء جسدين ونفسين وقلبين وروحين، وتعبير شامل التقاء إنسانين، تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة، وآلام مشتركة ومستقبل مشترك، يلتقي في الذرية المرتقبة، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان.

من هنا شدد الإسلام في عقوبة الزنى بوصفه نكسة حيوانية، تذهب بكل هذه المعاني، وتطيح بكل هذه الأهداف، وترد الكائن الإنساني مسخا حيوانيا ، لا يفرق بين أنثي وأنثي، ولا بين ذكر وذكر. مسخا كل همه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة.

فإن فرق وميز فليس وراء اللذة بناء في الحياة وليس وراءها عمارة في الأرض وليس وراءها نتاج ولا إرادة نتاج ! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار، وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع، الذي يحسبه الكثيرون

عاطفة يتغنون بها، وإنما هي انفعال حيواني يتزيا بزى العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان.

إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها، إنما ينظمها ويظهرها، ويرفعها عن المستوي الحيواني، ويرقيها حتى تصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية فأما الزنى وبخاصة البغاء فيجرد هذا الميل الفطري من كل الرفرفات الروحية، والأشواق العلووية؛ ومن كل الآداب التي تجمعت حول الجنس في تاريخ البشرية الطويلة؛ ويديه عاريا غليظا قدرا كما هو في الحيوان، بل أشد غلظا من الحيوان، ذلك أن كثيرا من أزواج الحيوان والطير تعيش متلازمة في حياة زوجية منتظمة، بعيدة عن الفوضى الجنسية التي يشيعها الزنى وبخاصة البغاء، في بعض بيئات الإنسان.

دفعُ هذه النكسة عن الإنسان هو الذي جعل الإسلام يشدد ذلك التشديد في عقوبة الزنى.. ذلك إلى الأضرار الاجتماعية التي تعارف الناس على أن يذكرها عند الكلام عن هذه الجريمة ، من اختلاط الأنساب، وإثارة الأحقاد، وتهدد البيوت الآمنة المطمئنة.. وكل واحد من هذه الأسباب يكفي لتشديد العقوبة ولكن السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية، ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة على أساس الدوام والامتداد.. هذا السبب هو الأهم في اعتقادي وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى.

على أن الإسلام لا يشدد في العقوبة هذا التشديد إلا بعد تحقيق الضمانات الوقائية المانعة من وقوع، ومن توقيع العقوبة إلا في الحالات الثابتة التي لا شبهة فيها، فالإسلام منهج حياة متكامل، لا يقوم على العقوبة؛ إنما يقوم على توفير أسباب

الحياة النظيفة، ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ في الوحل طائعا غير مضطر.

فإذا وقعت الجريمة بعد هذا كله فهو يدرأ الحد ما كان هناك مخرج منه لقوله p: "ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ فهو العفو خير من أن يخطئ في العقوبة"⁽⁵⁴⁾، لذلك يطلب شهادة أربعة عدول يقرون برؤية الفعل أو اعترافا لا شبهة في صحته.

وقد يُظن أن العقوبة إذن وهمية لا تردع أحداً، لأنها غير قابلة للتطبيق، ولكن الإسلام - كما ذكرنا - لا يقيم بناءه على العقوبة، بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة، وعلى تهذيب النفوس، وتطهير الضمائر؛ وعلى الحساسية التي يثيرها في القلوب، فتتخرج من الإقدام على جريمة تقطع ما بين فاعلها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة. ولا يُعاقب إلا المتبجحين بالجريمة، الذين يرتكبونها بطريقة فاضحة مستهترة فيراها الشهود.. أو الذين يرغبون في التطهر بإقامة الحد عليهم كما وقع لماعز ولصاحبته الغامدية، وقد جاء كل منهما يطلب من النبي p أن يطهره بالحد، ويلح في ذلك، على الرغم من إعراض النبي مرارا، حتى بلغ الإقرار أربع مرات، ولم يعد بُدُّ من إقامة الحد، لأنه بلغ إلى الرسول بصفة مستيقنة لا شبهة فيها، والرسول p يقول: "تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب"⁽⁵⁵⁾.

فإذا وقع اليقين، وبلغ الأمر إلى الحاكم، فقد وجب الحد ولا هوادة، ولا رأفة في دين الله فالرأفة . بالزناة الجناة حينئذ هي قسوة على الجماعة، وعلى الآداب الإنسانية وعلى الضمير البشري. وهي رأفة مصطنعة فالله أرأف بعباده وقد أختار لهم . [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ

54 - أخرجه الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها.
55 - أخرجه أبو داود في كتاب الحدود (باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان).

أمرهم⁽⁵⁶⁾، والله أعلم بمصالح العباد، وأعرف بطبائعهم فليس لمتشدد أن يتحدث عن قسوة العقوبة الظاهرية؛ فهي أرف مما ينتظر الجماعة التي يشيع فيها الزنى، وتفسد فيها الفطرة، وترتكس في الحمأة، وتنتكس إلى درك البهيمة الأولى..

والتشديد في عقوبة الزنى لا يغني وحده في صيانة حياة الجماعة، وتطهير الجو الذي تعيش فيه، والإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء الحياة النظيفة، كما قلنا، إنما يعتمد على الضمانات الوقائية وعلى تطهير جو الحياة كلها من رائحة الجريمة.

لذلك يعقب على حد الزنى بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة. ثم يمضي في الطريق خطوة أخرى في استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة، فيعاقب على قذف المحصنات واتهامهن دون دليل أكيد، كما سنرى بعد ذلك.

ولعل⁽⁵⁷⁾ بعض الذين تأثروا بالثقافة الغربية، يرون في هذه الحدود والعقوبات شيئاً من الشدة والقسوة لا تتفق مع روح العصر، وتعارض الحرية الشخصية وخاصة (حرية المرأة) التي أطلقها لها الغرب باسم التحرر والمساواة وتحت شعار (الديمقراطية) التي قررها لها القانون.

والغريبون لا يعتبرون الزنى جريمة يعاقب عليها القانون إلا إذا كان بالإكراه أو اعتداء على حرية الغير أما إذا كان بالرضى فليس فيه ما يدعو إلى العقوبة لأنه يخلو حينئذ عن فكرة (العدوان)

فالزنى - في نظرهم - وإن كان عيباً إلا أنه ليس بجريمة على كل حال فإذا زنى الرجل البكر بامرأة بكر فإن فعلهما ليس بفاحشة مستلزمة للعقوبة إلا إذا كان ذلك بالإكراه فإنه يعاقب للإكراه بعقوبة خفيفة، وأما إذا زنى بامرأة متزوجة فللزوجة أن يطالبه بتعويض (غرامة مالية) من الرجل الذي أفسد زوجته فنظرهم إذن هي نظرة

56 - الأحزاب:36.

57 - محمد على الصابوني..روائع البيان في تفسير آيات الأحكام(النور..المحاضرة الأولى).

مادية، ومن أجل ذلك تهَدَّم المجتمع وتخرَّبت الأسر، وانتشرت تلك الأوباء والجرائم الخلفية فيهم.

فأين هذا من تشريع العليم الحكيم الذي صان الأعراض، وحفظ الأنساب، وطهر المجتمع من لوثة تلك الجريمة البشعة؟

أيها القارئ الكريم بعد أن تم كلام ربنا العزيز الحكيم، عن حد الزنا، والتنفير منه؛ إنقاذاً لأفراد المسلمين، وصيانة لمجتمعهم.

بعد هذا: يبدأ الحديث الإلهي.. عن حد آخر من حدود الله تعالى، به يتم الطهر في المجتمع، والعفة في اللسان، والنقاء في الضمير، والحماية للأعراض.

وهو في ذات الوقت شروع في بيان حكم من نسب الزنا إلى غيره، بعد بيان حكم من فعله.

ألا هو : حد القذف (58).

الحكم الثالث : حد القذف

يقول المولى تبارك وتعالى:

[وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]

ومعنى الآية أن الذين يقذفون النساء المسلمات العفيفات المكلفات بالزنى... دون أن يأتوا بدليل يثبت ويؤكد صحة ما قولوا في حقهن من القذف بالزنى.

وهذا الدليل: هو إتيانهم بأربعة شهداء عدول يشهدون على المقذوف أنه زنى، وأنهم رأوا ذلك منه، وأن القاذف صادق.

كل ذلك: صيانة للمجتمع المسلم، واحتراما لأفراده وتنمية للأخلاق الفاضلة في ربوعه.

وفي الآية: كثير من الأحكام والتعليمات التي لا ينبغي إغفالها ومن ذلك:

أولاً: أنه لا فرق في الحكم بين أن يكون المقذوف بالزنا.. امرأة، أو رجلاً

صحيح: أن الآية ذكرت النساء فقط- وإن كان الرجال يشاركون في الحكم- حيث هن أهم ورميهن بالفاحشة أشنع، وأنكي للنفوس⁽⁵⁹⁾.

ثانياً: لتنفيذ حد القذف.. لا بد من توافر تسعة شروط، كما قال العلماء وهي:

شرطان في القاذف، وهما: البلوغ، والعقل.

وخمسة شروط في المقذوف، هي البلوغ والعقل والإسلام، والحرية والعفة عن الفاحشة التي رمي بها، عفيفاً كان عن غيرها، أولاً.

وشرطان في المقذوف به، وهما: أن يقذفه بوطء يلزمه فيه الحد، وهو: الزنى أو اللواط والثاني: أن ينفيه من أبيه، أي: أن المقذوف ليس ابن أبيه، أي أنه ابن زنى.

ثالثاً: إنه يلزم لإثبات القذف وإقامة حده.. أربعة شهود ولا يحتاج إلى الأربعة الشهود غير ذلك سوى حد الزنى.

وكان ذلك هنا وهناك رحمة بعبادة وسترًا لهم، وعملاً على عدم شيوع الفاحشة، ونشر أخبارها، في المجتمع الإسلامي.

رابعاً: أن حد القذف كما تبين الآية ، مكون من ثلاثة أشياء:

(أ) جلد القاذف الذي لم يأت بأربعة شهود..ثمانين جلدة.

(ب)رد شهادته، وعدم قبولها منه أبداً.

(ج)الحكم عليه بالفسق، فلا يكون عدلا عند الله، ولا عند الناس.

خامساً: أن الاستثناء في قوله تبارك وتعالى: **[إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]**.

لا يتعلق بالجلد مطلقاً، يعني: لا بد أن يجلد القاذف تاب أو لم يتب، وهذا بإجماع العلماء ويتعلق بفسقه مطلقاً، بمعنى: أنه لا يحكم عليه بالفسق إذا تاب وأصلح من حاله.

وأما بالنسبة لرد شهادة القاذف، أو قبولها، بعد توبته: فقد اختلف العلماء في ذلك.

حيث قال جمهور العلماء إن الاستثناء في قوله تعالى: **[إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا]** عامل في رد هذه الشهادة، بمعنى: أن القاذف إذا تاب، قبلت شهادته؛ لأن ردها كان لعله الفسق التي وصفه الله عز وجل بها، وبما أن وصفه بالفسق قد زال بتوبته: فإن شهادته تقبل مطلقاً، قبل الجلد، أو بعده.

وقال البعض الآخر منهم: إن هذا الاستثناء لا يعمل في رد شهادة القاذف، لأن فسقه يزول عند الله تعالى فقط، وأما شهادته فلا تقبل مطلقاً، حتى ولو تاب، وأكذب نفسه، ولا بحال من الأحوال⁽⁶⁰⁾، ومعنى هذا: أن الاستثناء لا يعود إلا على الجزء الأخير من أجزاء حد القذف الثلاثة: وهو الحكم عليه بالفسق بخلاف ما

ذهب إليه الجمهور من أنه يعود على الأمرين الأخيرين وهما: الحكم عليه بالفسق ورد شهادته.

سادسا: ما هو قاذف الجماعة؟(61).

أختلف الفقهاء في حكم من قذف جماعة على ثلاثة مذاهب:

أ) المذهب الأول: مذهب القائلين بأنه يحد حدًا واحدًا وهم (أبو حنيفة ومالك وأحمد).

ب) المذهب الثاني: مذهب القائلين بأن عليه لكل واحد حدًا وهم (الشافعي، والليث).

ت) المذهب الثالث: مذهب الذين فرقوا بين أن يجمعهم في كلمة واحدة مثل أن يقول لهم : يا زناة أو يقول لكل واحد يا زاني . ففي الصورة الأولى يحد حدًا واحدًا، وفي الثانية عليه لكل واحد منهم حد، وهو مذهب (أبن أبي ليلي، والشعبي).

دليل الجمهور: احتج أبو بكر الرازي (62) على قول الجمهور بالكتاب والسنة، والقياس:

أما الكتاب : فقوله تعالى: [**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ**] والمعنى أن كل من رمى المحصنات وجب عليه الجلد وذلك يقتضي أن قاذف الجماعة من المحصنات لا يجلد أكثر من ثمانين فمن أوجب على قاذف جماعة المحصنات أكثر من حد واحد فقد خالف الآية.

61 - الصابوني..روائع البيان (النور..المحاضرة الثانية)

62 - أبو بكر الرازي هو المشهور ب(الجصاص) وأنظر أحكام القرآن ج3ص332.

وأما السنة: فما روي عن ابن عباس أن (هلال بن أمية) قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ "البينة أوجد في ظهرك" فلم يوجب النبي ﷺ على هلال إلا حدًا مع أنه قذف زوجته وقذف معها (شريك بن سحماء).

وأما القياس: فهو أن سائر ما يوجب الحد إذا تكرر منه مرارًا لم يجب إلا حدًا واحد، كمن سرق مرارًا، أو شرب الخمر مرارًا، لم يجد إلا حدًا واحدًا فكذا ههنا⁽⁶³⁾.

أدلة الشافعية:

وأجاب الشافعية عن الأول بأن قوله (والذين) صيغة جمع، وقوله (المحصنات) صيغة جمع، وإذا قوبل الجمع بالجمع واقتضى القسمة على الأحاد فيصير المعنى: كل من رمى محصنا واحدًا وجب عليه الحد.

وأجابوا عن الثاني بأنه قذفهما بلفظ واحد وقد قال الشافعي - في القديم - لا يجب إلا حدًا واحدًا اعتبارًا باللفظ.

وأجابوا عن القياس بأنه قياس مع الفارق فإن حد القذف حق الآدمي، بخلاف حد الزنى والشرب فإنه حق الله تعالى وحقوق الآدمي لا تتداخل⁽⁶⁴⁾.

الترجيح: والصحيح الراجح هنا هو رأي الجمهور لقوة أدلتهم لأنه لو قذف قبيلة فأقمنا عليه لكل واحد حدًا هلك، والله أعلم.

63 - أحكام القرآن للجصاص بتصريف ج3 ، ص333، والفخر الرازي (النور:4).

64 - أنظر بسط الأدلة بالتفصيل في الفخر الزاري.

هذا.. وبعد أن بين ربنا عز وجل حكم قذف النساء الأجنبية في الآية السابقة: يبين عز وجل حكم قذف الزوجات خاصة؛ حيث إن للأزواج وضع خاص، يختلف عن سائر الناس.

الحكم الرابع : حد اللعان

يقول تبارك وتعالى:

[وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ]

أيها القارئ الحبيب.. عن ابن عباس رضي الله عنه : لما نزل قوله تعالى: [وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ] الآية ...

قال سعد بن عباد وهو سيد الأنصار، أهكذا أنزلت يا رسول الله ..؟

فقال رسول الله ﷺ "ألا تسمعون يا معشر الأنصار ما يقول سيدكم..."

قالوا: يا رسول الله ﷺ إنه رجل غيور، والله ما تزوج من امرأة قط إلا بكرًا، ولا طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته.

فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق، وأنها من عند الله، ولكن قد تعجبت..
أن لو وجدت لكاع . أي زوجة . حمقاء . قد تَفَحَّذَهَا رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا
أحركه حتى آتي بأربعة شهداء...؟

فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته...!!

ثم قال: يا رسول الله إني أرى ما قد اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق.
فوالله إن رسول الله ، يريد أن يأمر بضربه: إذ نزل عليه الوحي..

فنزلت : [**وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ**] الآيات

فسري عن رسول الله ﷺ

ثم قال: أبشر يا هلال، فقد جعل لك فرجا ومخرجا.

فقال هلال: كنت أرجو ذلك من ربي.

وذكر باقي الحديث (65).

ومعنى الآيات: أن الذين يقذفون زوجاتهم بالزنى، وليس لهم شهود بواقعة الزنى هذه إلا
أنفسهم فقط.. فإن عليهم.. أن يلاعنوا زوجاتهم، كما أمر الله تعالى.

وكيفية الملاعنة.. أن يحضر الرجل زوجته هذه ، التي رماها بالزنى إلى الإمام، ويدّعي عليها
بما رماها به.

وهنا.. يحلفه الحاكم ، حتى يثبت دعواه- ولا يقام عليه حد القذف- أربع شهادات بالله، في مقابلة أربعة شهود، [إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ] فيما رماها به من الزنى.

والشهادة الخامسة: يقول فيها [أَنْ لَعَنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ] فيما رماها به من الزنى.

فإن قال ذلك: حصل خمس نتائج ، كما يقول الإمام الشافعي.

(أ) سقط عنه حد القذف.

(ب) وانتفى عنه الولد.

(ت) وبانت منه زوجته، أي طلقت طلاقاً بائناً.

(ث) وحرمت عليه أبداً، عند كثير من العلماء كما يقول الإمام بن كثير⁽⁶⁶⁾.

(ج) ووجب عليها حد الزنى.

ولا يدرأ عنها . أي يدفع عنها . هذا الحد وعذابه إلا أن تلاعن زوجها.

وكيفية ملاحظتها هذه...

أن تشهد- أي تحلف- أربع شهادات بالله (إنه لمن الكاذبين) فيما رماها به من الزنى.

والشهادة الخامسة: تقول فيها (أَنَّ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أي زوجها، فيما رماها به من الزنى.

هذا..

66- ابن كثير.. تفسير القرآن العظيم (النور...آية 7).

ويلاحظ جيداً..

أولاً: أن الله تعالى خص النساء بالغضب (أن غضب الله عليها) ولم يستعمل اللعن في حقهن ، لعدة أسباب.

منها أن الرجل لا يقدم على فضيحة نفسه، ورَمي أهله بالزنى، إلا وهو صادق معذور.

كما أنها تعلم صدقة، والمغضوب عليه: هو الذي يعلم الحق ويحيد عنه.

وكذلك: فإن النساء يستعملون اللعن كثيراً كما في الحديث النبوي الشريف فرما يقدمن على الحلف وهن كاذبات، لعدم الخوف من اللعن لكثرة جريه على ألسنتهن، وسقوط وقعه في قلوبهن، بخلاف الغضب ، الذي يكون أشد في التخويف والردع لمن عن الكذب.

ثانياً: يحتاج اللعان - كما يقول العلماء- إلى أربعة أشياء هي : الألفاظ وجمع من الناس، والمكان، والزمان.

أما الألفاظ.. فهي:الشهادات الأربع كما سبق توضيحه.

وأما جمع الناس فهو: أن يكون حاضرًا لعملية اللعان عدد من الناس يشهدونه عددهم أربعة فصاعداً.

وأما المكان .. فهو أن يتم اللعان في أشرف البقاع في البلدان.. إن كان بمكة: فعند الركن والمقام، وإن كان بالمدينة، فعند المنبر، وإن كان بيت المقدس، فعند الصخرة، وإن كان في سائر البلدان: ففي مساجدها.

وأما الزمان..فهو أن يتم هذا اللعان: بعد صلاة العصر⁽⁶⁷⁾، ويفضل عصر يوم الجمعة⁽⁶⁸⁾.

والألفاظ وجمع الناس: مشروطان.

والمكان، والزمان: مستحبان⁽⁶⁹⁾.

ثالثاً: أن من كمال رافة الله تعالى، ورحمته بعباده، وعميم فضله عليهم..أن يختم الحديث في هذا الموضوع الخطير، بقوله عز وجل [**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**].

أي : فيما بين من هذه الأحكام (ورحمته) فيما أمهل من العقوبة، ومكن من التوبة..لهلكتم وفضحتم، وكان ما كان من أنواع المفاسد، ولكن (الله) تبارك وتعالى (تواب) على عباده (حكيم) فيما يشرعه لهم، وفيما يأمرهم به، وكذلك فيما ينهاهم عنه.

بعد أن بين المولى عز وجل - أخي في الله - حكم القذف بالزنى بالنسبة للمحصنات الأجنبية ، والمزوجات كذلك: أتبع ذلك بذكر قصة قذف أشرف المحصنات، وهي السيدة عائشة، أم المؤمنين رضي الله عنها، مبينا ما كان ينبغي على المؤمنين أن يفعلوه في هذا الموضوع، الذي عرف في كتب الحديث والسيرة والتاريخ.

الحكم الخامس: حادثة الإفك

وعنها يقول رب العزة:

67 - أنظر: سعيد حوى..الأساس في التفسير (النور..آية 9)

68 - القرطبي..الجامع لأحكام القرآن..(النور..آية 9)

69 - النيسابوري..غرائب القرآن ورغائب الفرقان(النور..آية 9).

[إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكَلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا اِكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ]

يقول الإمام ابن كثير: هذه الآيات العشر.. كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين، بما قالوه من الكذب البحت والفرية، التي غار الله تعالى لها، ولنبيه، صلوات الله وسلامه عليه.

فأنزل براءتها؛ صيانة لعرض الرسول ﷺ في هذه الآيات (70).

ومعني الآيات : إن الذين اختلقوا أسوأ الكذب، على أم المؤمنين عائشة.. جماعة منكم، ليس فردًا واحدًا، أو اثنان، بل أكثر من ذلك.

وتحدد الروايات، وتذكر أسماءهم، وهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي، الذي أشاع هذا الأمر، وبثه في النفوس، حتى صدقه البعض، ووقع في هاويته.

ومن هؤلاء : حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش، رضي الله عنها.

وقد أحدث هذا الكذب.. هلعًا وفزعًا بين الناس، واضطرابًا في بيت النبوة.. حتى كشف الله الغمة وأذهب هذه الفتنة بما أنزل في هذه الآيات الكريمة.

ثم يخاطب ربنا عز وجل غير الذين وقعوا فيه [لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ]
[حيث أنزل الله بسببه من الآيات المليئة بالعبر والدروس ما أنزل.. مما يفيد منه المجتمع المسلم.

وعلى كل حال: فإنه [لِكَلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ] عقاب (ما اكتسب من الإثم) على قدر خوضه، وإسهامه، في هذا الموضوع.

70- لمعرفة القصة كاملة، برواياتها.. راجع البخاري..ك الشهادات،" تفسير سورة النور، مسلم..كالتوبة، باب "في حديث الإفك وقبول توبة القاذف" السيرة النبوية.. لابن هشام 297/2.

[**وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ**] أي: قام بالنصيب الأكبر فيه، حيث بدأه ، وأشاعه، وهو عبد الله بن أبي .. [**لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**] وهو النار في الآخرة.

وبعد أن بين الله حال الذين وقعوا في هذا الإفك وأشاعوه، وأشار إلى أنواع عقوباتهم..!! يبدأ عز وجل في التوجيهات الربانية والزواجر الإلهية للمجتمع المسلم وأفراده وقتها، ولكل مجتمع مسلم وأفراده، في أي عصر، ومصر، حتى قيام الساعة وهذه التوجيهات ..منها⁽⁷¹⁾.

الأول:

[**لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**]

أي كذب ظاهر على أم المؤمنين

والمعنى: هل ظننتم خيراً، حين سمعتم هذا الإفك الذي أشيع على أم المؤمنين، ونفيتموه، وكذبتموه.

يعني: ما كان ينبغي لكم أن تشكوا لحظة في كذب هذا الفرية خاصة وأنكم لا تعرفون إلا الخير كل الخير والطهر كل الطهر، في بيت النبوة، وكان عليكم أن تسارعوا بإعلان كذب هذه الدعوة الآثمة.

وفي هذا درس للأمة كلها: أن يحسن المؤمنون والمؤمنات الظن بأنفسهم ولا يدعوا للشيطان مدخلا لديهم، ولا للظن السيئ في أنفسهم طريقا إليهم.

ففي الحديث الشريف: "إياكم والظن، فإن الظن: أكذب الحديث"⁽⁷²⁾.

الثاني:

71 - أنظر الجمل..الفتوحات الإلهية..(النور:11).
72 - البخاري..ك النكاح باب لا يخطب على خطبة أخيه.

[لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ]

أي: هلا جاؤا على ما يدعونه بينه، ومن المعلوم أن البينة على ما ادعوه من الكذب : هي أربعة شهود يعاينون هذا الكذب.

ولو جاؤا عليه بأربعة شهداء: لكانوا صادقين.

ولكن: لم يأتوا بأية شهود؛ حيث إن دعواهم كذب محض، وافتراء باطل.

وعلى هذا:

(فإن لم يأتوا بالشهداء) وبالفعل لم يأتوا..

فأولئك في حكم الله هم الكاذبون فيما ادعوه.

ولهذا..

فعلى كل مسلم.. أن لا يتفوه بهذه التهمة الشنيعة، إلا إذا كان يملك الدليل عليها، وإلا فهو كاذب يستحق عقوبة القاذف.. في الدنيا، وأمره في الآخرة: مفوض إلى مولاه.

وهل يليق بمسلم أن يَهْرَفَ بما لا يعرف، أو يتهم بلا بينة..؟

كلا.. وألف كلا..؟

الثالث:

[وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ]

والخطاب هنا: لمن عنده إيمان، يقبل الله منه بسببه التوبة..مثل: حسان، ومسطح ،
وحمئة.

أما من لا إيمان عنده كعبد الله بن أبي: فلا يدخل في هذا الخطاب، والتشريف
الإلهي.

والمعنى:(ولولا فضل الله عليكم) يا من أخطأتم بالوقوع في هذه المعصية بأنواع النعم،
التي من جملتها : الإمهال للتوبة، والرحمة في الآخرة، بالعفو عنكم، والمغفرة، المقدرين
لكم في علم الله تعالى.

ولولا هذا : لمسكم بسبب خوضكم وإفاضتكم في الإفك (عذاب عظيم) يهون
بجانبه التوبيخ لكم، والعقاب الذي وقع عليكم في الدنيا بسبب ما وقعتم فيه من
الكذب.

وفي هذا: لفت نظر لنا أن نتعرض لفضل الله علينا ورحمته بنا..عن طريق الطاعات؛
حيث إنه من المناسب: التحلي بحسن الأدب، وكثير الطاعة، مع صاحب الفضل.

الرابع:

**[إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ]**

أي: اذكروا حين كنتم تستقبلون هذا الكذب لا بأسماعكم، ولا بعقولكم، بل
بألسنتكم فقط..يعني: لا تفكرون فيه، ولو فكرتم لعرفتم كذبه، ولكذبتموه بعقولكم،
ولكن استقبلته ألسنتكم، وأشاعته فوراً.

كما أنكم كنتم تقولون بأفواهكم ما لم تدركه عقولكم، و (ما ليس لكم به علم) بالمرّة
أبدًا.

كل هذا الكم الهائل من الأخطاء.. (وتحسبونه هينا) أي لا إثم فيه، بل شيئا يسيرا تستهينون به، وتساهمون في نشره.

وهو في واقع الأمر (عند الله عظيم) في الإثم، خطير في الأثر، شنيع في الضرر.

وفي هذا درس لكل مسلم: أن يستعمل عقله، وأن يحفظ لسانه إلا من قول صدق أو ذكر لله تعالى.

يقول سبحانه: [وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا] (73).

وفي الصحيح: " وإن الرجل، ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالا: يهوي بها في جهنم" (74).

الخامس:

[وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ]

أي: حينما سمعتم هذا الكلام البذيء الفاحش، هلا ظننتم على الفور بهم خيرا، وقلتم ما ينبغي لنا ولا لغيرنا أن نتكلم بهذا.. بل كان عليكم: أن تقولوا منزهين لساحة بيت النبي p (سبحانك.. هذا بهتنا عظيم) أي كذب فاحش، لا يليق سماعه، ولا ينبغي ذكره.

فعلى المسلم: حينما يسمع مقالة السوء على أخيه المسلم، رجلا كان أو امرأة - أن ينزه ساحته، وأن لا يظن به إلا خيرا، وأن لا يتكلم إلا بخير.

73 - الإسراء: 36.

74 - البخاري: ..ك الرقاق ، باب " حفظ اللسان".

حيث أن كل مسلم على المسلم حرام، دمه ماله وعرضه، كما في الحديث الشريف⁽⁷⁵⁾.

بل الواجب عليه: أن يدافع عنه بالحق، وأن يرد غيبته.. فعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ، قال: "من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيام"⁽⁷⁶⁾.

السادس:

[**يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**]

أي: لا تعودوا لمثل هذا الخطأ والذنب، قذفاً، أو استماعاً، أو نشرًا وإشاعة، (أبدًا) ما دمتم أحياء، إذ لا استثناء في ذلك (إن كنتم مؤمنين) وحريصين على الاتصاف بهذا الوصف الجليل.

كما أنه عز وجل :

[**وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**]

أي يبين الآيات الواضحات، من الأحكام والشرائع، والآداب، المطهرة لمجتمعاتكم، والمنجية لكم من الوقوع في المهالك.

(والله عليم) بما ينفعكم ويصالحكم، عليم بطاعتكم ومدى استجابتكم وإفادتكم من هذه الآيات.

(حكيم) في شرعه ، وقدره.

ومن حكمته: أن كانت حادثة الإفك، وإنزاله من الآيات ما فيه براءة أم المؤمنين عائشة؛ لعلمه بصدق نزاهتها.

75 - مسلم.ك البر، باب تحريم ظلم المسلم.

76 - الترمذي ..ك البر، باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم، وقال هذا حديث حسن.

وذلك: لكي لا تقعوا في زلل مشابه، وإذا وقعتم: أن تسارعوا بالتوبة إلى الله تعالى.
وهذا...يدفع المسلم إلى البحث في شرح الله تعالى عن الحكم والأسرار، ومعرفة
المنافع والعظات، التي تعينه على طاعة الله، والخضوع لمشيئته.
مع يقينه الكامل: أن شاء الله تبارك وتعالى (عليم) بما يصلح خلقه ، وينفعهم
(حكيم) فيما يشرعه لهم، ويطلبهم به.

السابع:

[إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ]

أي: إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، إخبارًا عنها، أو ممارسة لها (في اللذين
آمنوا) ومجتمعاتهم: (لهم عذاب اليم في الدنيا) بإقامة الحد عليهم، وهو حد القذف ()
والآخرة) كذلك، لهم فيها عذاب النار، إن لم يتوبوا.

ويفهم من هذه الآية: أن من يجب إشاعة الفاحشة ، فضلا عنم يشيعها، أو يأمر
بإشاعتها، أو يساعد على ذلك، أو يرضى على الأقل بإشاعتها (في اللذين آمنوا)
وبين صفوفهم وفي بيوتهم، وشوارعهم ومنتدياتهم، ومجتمعاتهم، أو بنفسه أو بوسيلة من
الوسائل: فجرمة كبير، وعقابه عند الله شديد.

وكفي بهذا تخويفا، وكفي بهذا تحذيرا...!!

الثامن:

[وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ]

أي: لولا فضل الله عليكم يا من أخطأتم بالوقوع في هذه المعصية بأنواع النعم، التي من جملتها، الإمهال للتوبة، والرحمة في الآخرة، بالعتو عنكم والمغفرة، المقدرين لكم في علم الله تعالى: لكان أمر آخر، لا تحمد عقباه.

ولكنه تعالى (رؤف) بعباده (رحيم) بهم فتاب على من تاب إليه في هذه القضية وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه.

وفي هذا أيضا: لفت لأنظارنا أن نتعرض لفضل الله علينا، ورحمته بنا.. عن طريق الطاعات؛ حيث إنه من المناسب: التحلي بحسن الأدب، وجميل الطاعة مع صاحب الفضل، واسع الرحمة (الرؤوف الرحيم).

وبهذا انتهى الحديث عن حادثة الإفك، التي هزت مجتمع المدينة، والتي ابتلى الله فيها المسلمين وانكشف فيها المنافقون، ونجح فيها الصادقون في إيمانهم والتي كانت درسا بليغا لهذا المجتمع الوليد.

كما أنها ملئت دروسا وعبرا، وتوجيها.

بل إن هذه الآيات العشر السابقة.. أعقبتها طائفة من الآيات كذلك كلها توجيهات للمسلمين وتعليم وإعلام لهم.

حيث يبين لنا ربنا تبارك وتعالى في:

التوجيه الأول: أن هذه الفتنة التي كانت... إنما هي من عمل الشيطان.

ومن هنا فاحذروه ولا تتبعوه

إذ يقول سبحانه:

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ]

والآية الكريمة : تبدأ بهذا النداء المحبب، الذي يؤدي إلى الاستجابة الفورية،

لكل ما يأمر به المولى أو ينهى عنه.

وهي هنا: تنهى عن اتباع (خطوات الشيطان) أي: وساوسه، وما يأمر به،: من أقوال السوء والأفعال الذميمة.

(ومن يتبع خطوات الشيطان) يقع في الضلال والعصيان، ومن ثم يهلك.

حيث إن الشيطان (يأمر بالفحشاء) وهي كل ما تعظم قبحه،(والمنكر) كذلك، يأمر به، وهي كل ما تنكره النفوس السليمة، وترفضه العقول الكاملة.

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته) حيث يرزق من يشاء التوبة من الخطيئة والمعصية، ويزكي ما يشاء من النفوس، بعد شركها وفجورها، وما فيها من أخلاق رديئة: لما حصل لأحد خيراً ولا زكاة، أبداً.

(ولكن الله) عز وجل بفضله ورحمته (يزكي من يشاء) من خلقه.. فيطهره من الدنس، وينقذه من الهلاك، ويرشده إلى الفلاح وكذلك: يضل ن يشاء من عباده، ويرديه في مهالك الضلال والغواية.

(والله سميع) لأقوال عباده، يحصيها عليهم، ويسجلها لهم في كتاب [لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا] (77).

(عليم) بمن يستحق الهداية منهم، ومن لا يستحق إلا الضلال.

وهذا كما نرى ، تنبيه وتحذير واضح، مشفوع بدليله.

لذا.. يجب الإفادة منه، والامتثال له.

التوجيه الثاني: ينبغي أن يسود بيننا العفو، والصفح والإحسان تقوية للمجتمع المسلم، وإشاعة للحب بين أفراده.

حيث يقول سبحانه وتعالى:

[وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ]

وهذا التوجيه : متصل بما قبله إتصالاً وثيقاً

حيث إن من كيد الشيطان أن يوسوس إلى من يفعل الخير، ويداو على البر والطاعة.. أن منع هذا الخير، وقع هذا البر، في بعض المواطن، هو : عين الطاعة.

وهذا ما حدث مع الصديق أبي بكر رضي الله عنه، كما يبين سبب نزول هذه الآية.

يقول الإمام ابن كثير : هذه الآية..نزلت في الصديق حين حلف أن لا ينفع "مصطح بن أثاثه" بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال.. فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، طابت النفوس المؤمنة، واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد، شرع الله تبارك وتعالى . على من أقيم عليه.

نري المولي عز وجل : يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكينا لا مال له، إلا ما ينفقه عليه أبو بكر رضي الله عنه وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد تاب الله عليه من خطيئته وضرب الحد عليها.

هذا.. وكان الصديق معروفا بالمعروف له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب..
فلما نزلت هذه الآية.. إلي قوله تعالى (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أي: فإن الجزاء
من جنس العمل، فكما تغفر عن الذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفك
عنك..؟

عند ذلك... قال الصديق: بلي والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا.

ثم أعاد إي مسطح ما كان يصله به من النفقة.

وقال: والله لا أنزعها منه أبداً

وذلك: في مقابلة ما كان قال من قبل: والله لا أنفعه بنافعة أبداً(78).

"وكفر عن يمينه بل صار يعطيه ضعفي ما كان يعطله أولاً" (79).

وفي هذه الآية: كما هو واضح:

دعوة إلى المؤمنين جميعاً.. أن يكونوا: أصحاب عفو، وصفح، فيما بينهم عن أساء
إليهم عموا، ومن أقاربهم على وجه أخص؛ ليكونوا من المفلحين في الدنيا والآخرة.

التوجيه الثالث: بيان عاقبة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، ويرمون
المحصنات الغافلات بما هي منه بريئات:

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى:

78 - ابن كثير: سورة النور الآية 22 بتصرف يسير.
79 - الألوسي.. روح المعاني (سورة النور.. الآية 22).

[إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ]

قوله تعالى (إن الذين يرمون المحصنات..) بيان بعد بيان، واستئناف بعد استئناف.

حيث إنها متصلة بقوله تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا...).

وهذه وتلك من تفصيلات الموعدة، التي ذكرها المولي سبحانه في الآيات السابقة [يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] [النور: 17].

وهذه الآيات الثلاثة.. تبين أن الذين يرمون بالفاحشة ، النساء المؤمنات العفيفات، البعيدات عن كل فتنة وريبة، الغافلات.. يعني " السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللاتي.. ليس هن دهاء ولا مكر"(80).

الذين يرمون هؤلاء بالفاحشة زورا وبهتانا: لهم من العقوبات .. ثلاثة أشياء.(81).

إحداها: (لعنوا في الدنيا والآخرة) أي: يكونون ملعونين في الدنيا والآخرة، مطرودين من رحمة الله تعالى.

وهو : وعيد شديد ، إن لم يتوبوا.

حيث إن من كل ملعونا في الدنيا: فهو ملعون في الآخرة، ومن كان ملعونا في الآخرة : فإنه لا يكون من أهل الجنة.

80 - الفجر الرازي..التفسير الكبير (النور..الآية 23)

81 - الزمخشري...الكشاف(النور ..الآية23)

ثانيها: (لهم عذاب عظيم* يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون).

أي: لم عذاب شديد، يوم القيامة، يوم ينكرون ما كانوا يعملون فتشهد عليه أعضاؤهم [أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ] فلا يستطيعون لها ردًا ولا تكديبا، فيقولون [لِحُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] (82).

ثالثها: (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أي: يعطيهم جزاءهم العادل الذي يستحقونه، كاملا غير منقوص، وهو جزاء أليم؛ بسبب ما اقترفوه.. من إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم، ورميهم المؤمنات العفيفات بالفاحشة.

التوجيه الرابع: تقرير سنة إلهية: يوضحها جيدا حديث المصطفى ρ حيث يقول "الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" (83).

وهذه السنة: مشاهدة في واقع الناس، ودينامهم.

حيث نرى: الشبيه يساق بقدر الله تعالى إلى شبيهه ونظيره، ويقولون: الشيء من معدنه: لا يستغرب.

يقول ربنا عز وجل:

[الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ]

82 - فصلت: 21.

83 - مسلم، ك البر والصلة، باب " الأرواح جنود مجندة ".

بهذه الآية الكريمة يختم الحديث عن حادثة الإفك والتوجيهات التي ترتبت عليها، ونزلت في جوها وبسببها.

ومعني الآية: (الخبيثات) من النساء، ومن الكلمات (الخبِيثين) من الناس.

(والخبِيثون) من الناس: للخبِيثات) من النساء ومن الكلمات .

(الطيبات) من النساء ومن الكلمات (للطيبين) من الناس.

(والطيون) من الناس) للطيبات) من النساء، ومن الكلمات كذل.

وعلي ذلك.

فالطيون والطيبات: يدخل فيهم بل على رأسهم؛ محمد p وآل بيته الكرام بمن فيهم أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها.

ولذلك يقول رب العزة:؟. في شهادة واضحة، وتبرئة علنية، وإعلان لطهارة أبدية، عن رسول الله p: "أولئك مبرؤون مما يقولون) أي: أولئك الطيون والطيبات الذين جمعهم الله بعنايته، وحفظهم برعايته، وبرأهم بشهادته.. ما يتقولون عليهم به أهل الإفك ، وكذل كل من جاء بعدهم، ممن تسول له نفسه الإمارة بالسوء، ويزين له شيطانه، أن يتقول عليهم بأية أقوال لا تليف.

وفضلا عن ذلك: ف (لهم مغفرة ورزق كريم) أي: عند الله في جنات النعيم، جزاء إيمانهم، وعملهم الصالح، وصبرهم على الأذى.

ونلاحظ : أن الآية فوق أنها تقرر سنة إلهية، وحقيقة ربانية.. فهي (84).

تعزز ثقة المسلم بأهلهم وبإخوانه المؤمنين.

وتعزز . كذلك . ثقة المرأة المسلمة بزوجها، وثقة الرجل المسلم بزوجته.

وتبين في ذات الوقت لم يستحق من يقذفون الناس العقوبة التي حددها الله تعالى.

والآن أيها القارئ الكريم وقد انتهى الحديث عن آيات حادثة الإفك وما تبعها ن آيات التوجيه..

فتعال معنا أعزك الله لنقف على بعض الدروس التربوية، التي نستفيد منها لنتفعل بها، من الآيات الكريمة.

وهي كالتالي:

الدر الأول: رب ضارة نافعة.

ليس كل ما يحدث لنا ونحبه: بالأمر النافع لنا سواء في أمور ديننا، أو أمور دنيانا.

كما أنه ليس بالضرورة كل ما يحدث لنا، ولا نحبه..أمر ضار لنا في أمور ديننا أو أمور دنيانا.

يقول سبحانه وتعالى: [وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ] (85).

ولذلك يجب التسليم الكامل لله تعالى، والرضي الواعي..بكل ما يقع ويحدث لنا من مقدرات الله عز وجل ، دون اعتراض، أو تبرم، أو سخط..حيث ويحدث إننا لا ندري، ماذا تحبوه لنا الأقدار؟ ما دمنا لم نقصر في مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وحادثة الإفك: من هذا الباب.

يقول تعالى: [لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ] [النور:11].

"وكونه خير لهم، كما يقول الإمام الزمخشري أنهم اكتسبوا منه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء، ومحنة ظاهرة، كما كانت فيه: فوائد ، وأحكام، وآداب، لا تخفي على متأملها"⁽⁸⁶⁾.

نعم.. كان بلاء واختباراً امتحن الله به قلوب الناس، فمنهم من نجح في إيمانه، وثقته في نبيه ﷺ ومنهم من نزع الشيطان في قلبه، وضل سواء السبيل، وانكشف أمره للمسلمين.

الدرس الثاني: ضرورة حسن الظن من المسلم بإخوانه ، من المسلمين والمسلمات.

وقد نهي الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سواء؛ حيث يقول: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ]⁽⁸⁷⁾، أي : لا تظنوا بأهل الخير سوءاً.. إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

وفي الحديث "إياكم والظن.. فإن الظن: أكذب الحديث.." ⁽⁸⁸⁾.

وهذا : فيمن ظاهرة الخير.

وأما من ظاهرة القبح، والمجاهدة بالمعصية : فلا حرج أن يظن به السوء؛ حتى يتقي شره، وتتم النجاة من خطره.

ولآيات حادثة الإفك: تؤكد على هذا

حيث يقول ربنا عز وجل:

[لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ]
[النور:12].

86 - الزمخشري ..الكشاف(النور..الآية 11).

87 - الحجرات:12.

88 - البخاري..ك الوصايا باب قول الله تعالى(من بعد وصية توصون بها..الخ، ومسلم ..ك البر، باب تحريم الظن " الخ ، ورواه الترمذي وأحمد.

[وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ]

[النور:16].

نعم.. علي من يسمع شيئاً على أخيه المسلم رجلاً كان أو امرأة أن لا يظن به إلا خيراً.

الدرس الثالث: ضرورة حفظ اللسان

وقد ركز الإسلام على هذا الأمر جيداً.

ففي القرآن الكريم:

[وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا] (89)

ويقول: [وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا] (90).

ويقول: [وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ] (91).

وفي الحديث الشريف..

عن أبي هريرة .. أن رسول الله ﷺ قال: " أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أ رأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول.. فقد أغتبتة، وإن لم يكن فيه ما تقول... فقد بهته" (92).

وأخر الطبراني بإسناد جيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: من أذكر أمراً بشيء ليس فيه، ليعيبه به: حبسه الله في نار جهنم، حتى يأتي بنفاد ما قال فيه".

89 - الفرقان:63

90 - الفرقان:72

91 - القصص:55

92 - رواه: مسلم..ك البر، باب تحريم الغيبة، أبو داود..: الأدب، باب في الغيبة، الترمذي ..ك البر، باب ما جاء في الغيبة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وكل هذا .. سمو بالشخصية الإسلامية عن السفساف ، والانزلاق إلى صغير الأمور وتوافهها وعن الولوغ في الأخطاء ونتائجها.

كما أنه حماية للمجتمع من تقطعي الروابط بين أفرادها بسبب عدم حفظ اللسان عن قوة السوء، أو عن القيل والقال

ولذا يقول الشاعر

أحفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغك إنه ثعبان

وسورة النور .. من خلال حديث الإفك: تؤكد على ذلك.

حيث يقول رب العزة: [**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا**
مُجْتَنًا عَظِيمًا] [النور:16]

وعلي ذلك.

فينبغي أن يكون أدب المسلم: حفظ لسانه عن تتبع العورات والزلات، وعن المساهمة في نشر الشائعات.

الدرس الرابع: محاربة الشائعات.

حيث إن معظم الشائعات: لا تكون إلا في الأمور السيئة، وهي التي تنشر بين الناس بسرعة البرق.

وقد تكون مبنية على ظنون خاطئة تخالف الحقيقة كما قد تكون حاملة لمبادئ ضارة هدامة، أو هادفة لنشر رذيلة في المجتمع أو إشاعة فاحشة بين أفرادها.

ولذلك " يحرص الإسلام على وأدائها في مهدها، والحيلولة دون نشرها وذيوعها.

وهذا وضاح في آيات حادثة الإفك.

حيث يقول تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ] [النور:12].

وفي قوله عز وجل: [وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ] [النور:16].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده.. عن النبي ρ أنه قال: " لا تؤذوا عباد الله، ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراته.. فإن من طلب عورة أخيه المسلم: طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته".

نعم...

إن المجتمع المسلم.. هو مجتمع النظافة والطهارة في أجلي معانيها.

فالحذر.. كل الحذر: أتم تلوثه بإشاعة مغرصة، أو فاحشة مهلكة.

الدرس الخامس: وجوب الحذر من الشيطان وأعوانه.

وذلك: لخطورة الشيطان وأعوانه على أولياء الله تعالى.

ومن هنا: أمر الولي عز وجل.. بالحيلة الشديدة منه، والتنبيه الدائم له، واليقظة الكاملة لمكره ودهائه، واتخاذ عدواً، ينبغي الاستعداد لمواجهة والانتصار عليه.

إذ يقول سبحانه [إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ]⁽⁹³⁾.

ويقول الحبيب ρ : "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم"⁽⁹⁴⁾، فتنة وغواية وإضلالاً.

ولهذا... يجب على أولياء الله تعالى، اليقظة الكاملة ، والاستعداد الدؤب الوعي لهذا العدو القديم الجديد، الذي حذر المولي منه، وأمر بمعاداته.

وعلي ورثة الأنبياء من العلماء وهم أولي الناس بهذه اليقظة وأحق الناس لهذه الاستعداد وأعلمهم وأقواهم على هذا العداء والانتصار فيه تبصير الناس بهذا العدو وسهامه ووسائله، وتحذيرهم دائما منها(95).

وقد نبهتنا آيات حادثة الإفك إلى هذا الدرس امهم.؟

حيث يقول تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ] [النور: 21].

فهل انتهينا..؟

وهل نستجيب لهذا النهي والتحذير..؟

الدرس السادس: الموقف من عدوات الأقارب(96).

عدوات الأقارب: آفة اجتماعية قديمة مستمرة يصورها الشاعر في قوله:

يقولون عز في الأقارب إن دنت وما العز إلا في فراق الأقارب

تراهم جميعا بين حاسد نعمة وأخي بغض وآخر غائب

ومن كثرة هذه العدوات وشيوعها: يدور على الألسنة قولهم: "الأب: رب، والعم: غم، والأخ: فخ، والولد: كمد، والأقارب عقارب.

كما يقول بعضهم:

94 - رواه: البخاري..ك بدء الخلق،باب صفة إبليس وجنوده.

95 - أنظر: المسلمون بين الأزمات والنهضة للمؤلف ص33

96 - أنظر: زاد الدعاة..للمؤلف ج1 (بحث: صلة الأرحام).

إن الأقارب كالعقارب أو أشد من العقارب

والواقع الحياتي يقدم لنا أن في كل حين ما يؤكد هذا وأكثر منه

ولكن: هل ترك الإسلام هذه المشكلة دون علاج لها، أو إرشاد لعلاجها؟

كلا.. وألف كلا.

لقد أهتم الإسلام بها: اهتماما كبيرا وأولاها عناية فائقة، ونقدم وإن كان المجال لا يتسع لغير الإيجاز مثالين على هذا العلاج.

ففي القرآن الكريم: موقف سيدنا يوسف عليه السلام من إخوته الذين.. حسدوه وأذوه، وألقوه في الجب صغيراً لا حمل له ولا قوة، وهو موقف: مؤذي مخزي، لا ينسي أبداً.

فلما مكن الله بقدرته ومشيبته يوسف عليه السلام، في البلاد، والعباد، وأصبح كبير مصر، وسأقت الأقداء إليه أخواته، وأصبحوا في قبضته.. ماذا فعل معه؟

هل عاقبهم هل عاداهم، هل انتقم منهم؟

لا وألف لا..

إنما: عفا عنهم، وقال لهم [قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ] (97).

وفي السنة النبوية: لما عاد محمد ρ إلى مكة المكرمة بعد أن آذاه فيها قومه وأقاربه، وعذبوه، وأخرجوه منها. ودخلها قائد، فاتحا، منتصراً، وأصبح الذين لآذوه بالأمس.. بين يديه، ورهن إشارته.. ماذا فعل؟

هل عاقبهم، هل انتقم منهم؟

كلا وألف كلا..

إنما عفا عنهم، وقال لهم " أذهبوا فأنتم الطلقاء(98).

وهذه: هي شريعة الحب، شريعة الرحمة، شريعة الترابط، شريعة السلام .

وهو نفسه: ما دعت إليه آيات حادثة الإفك.

حيث نزل في ابي بكر الصديق رضي الله عنه لما أقسم أن لا ينفق على قريبه (مسطح) الذي وقع مع من وقع خطيئة الإفك، قوله تعالى: [وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] [النور:22].

وكان هذا : مثالا عمليا تطبيقيا على كيفية التصرف مع الأقارب المعادين..وهو : الإحسان إليهم، والاستمرار في مودتهم، طاعة الله تعالى، وطلبوا لعفوه وغفرانه.

الدرس الرابع: عناية الله تعالى بالنبي p ودفاعه عن حرماته وتأكيده طهارته وأهل بيته، وتكريم أزواجه p حيث يقول: [أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] [النور:26].

وهو إعلاء لشأن النبي p وردا في ذات الوقت لكيد المنافقين في نحورهم، وإبطال سعيهم وإفسادهم ..ولذلك يقول بعض الفقهاء(99)..:"من سب عائشة..فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل؛ فإن أهل الإفك رموا عائشة فبرأها الله تعالى.

فكل من سبها بما برأها الله منه، فهو مكذب لله ومن كذب الله: فهو كافر.

98 - ابن هشام..السيرة النبوية ..القسم الثاني ص412
99 - أنظر: القرطبي..الجامع لأحكام القرآن (النور..الآية 17).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : "من أذنب ذنبا، ثم تاب منه: قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة".

وهذا منه: تعظيم ومبالغة في أمر الإفك.. ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة:

برأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها.

وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه، بالحجر الذي ذهب بثوبه.

ومريم رضي الله عنها: بإنطاق ولدها.

وعائشة رضي الله عنها : بهذه الآي العظام ، في كتابه المعجز ، المتلو على وجه الدهر.

فانظر : كما بينها وبين تبرئة أولئك.

وما ذلك: إلا لإظهار علو منزلة رسوله ρ وبيان رفعة مقامه⁽¹⁰⁰⁾.

هذا.... وبعد أن تم البيان للأحكام العلاجية ، لجرائم الزنا، والقذف، والإفك، وغيرها، مع توضيح الآيات والحدود، الزاجرة عن الوقوع فيها...

يشرع سبحانه وتعالى في بيان الأحكام الوقائية، التي تحول دون الوقوع في الأخطاء السابقة مع توضيح الآيات المؤدية إلى هذا الغرض، والمحققة لهذا الهدف.

وأول هذه الأحكام الوقائية، ما يلي:

آداب الاستئذان في دخول البيوت وأحكامه.

وبيان ذلك في قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] [النور: 27]

الاستئذان في القرآن الكريم

تقديم.

الآيات.

ملايسات تشريع الاستئذان.

كيفية الاستئذان.

دخول البيوت الخاصة.

دخول البيوت العامة.

الاستئذان داخل البيت الواحد.

- تقديم

هاجر النبي p وأصحابه من مكة إلى المدينة: فأصبحوا بها قوة بعد أن كانوا مستضعفين، ولبسوا بها الأمان بعد أن كانوا خائفين، وجأهروا بعبادتهم وشعائرهم بعد أن كانوا بها مستترين، وأصبحت المدينة وطناً آمناً مرهوب الجانب بعد أن لقي الأعداء على أبوابها في غزوة الخندق هزيمة منكرة، وعادوا خائبين، خاسرين، وأعلن النبي p في أصحابه، ما يشعروهم به ويعلمهم أن المدينة أصبحت ذات: سيادة، واستغلال، موهوبة الجانب، عزيزة المال، يخشاها الأعداء، ويأمن فيها المسلمون على أنفسهم وأهليهم، وأموالهم، ويمكنهم فيها أن يقيموا بها أحكام الإسلام ويؤدوا فرائضه، دونما عدو يتربص بهم (101) حينما قال. "هذا لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم".

ومعنى هذا: أن المسلمين أصبحوا في المدينة أصحاب وطن يتمتع بالحدود الآمنة، ويقطنه أفراد يمكنهم تنفيذ شرائع الله تعالى، ولهم رئيس يحكمهم وينفذ فيهم أحكام السماء. ولذا: ناسب أن ينزل القرآن الكريم في هذه الفترة بالأحكام التي تنظم للمسلمين حياتهم وعبادتهم.

وفي هذه الفترة: نزلت سورة النور حافلة بتدابير قانونية وخلقية واجتماعية لإصلاح الحياة البشرية وتعميرها.

وتنقسم الأحكام والتعليمات الإلهية التي تزخر بها هذه السورة إلى قسمين:

(أ) أحكام تعالم المخرفات تكون قد وقعت بالفعل في المجتمع الإسلامي.

مثل:

آيات: حد الزنا.

آيات: حد القذف.

آيات: اللعان.

(ب) تعليمات للوقاية من مثل هذه الانحرافات قبل وقوعها.

مثل:

آيات: الاستئذان.

آيات: غض البصر وحفظ الفرج.

آيات: الحث على الزواج.

وحدیثنا . إن شاء الله تعالى . سوف يتناول آيات الاستئذان، وآيات غض البصر وحفظ الفرج، وهما من آيات القسم الثاني، من روائع هذه السورة وآياتها البيّنات. وذلك في هذا المبحث والذي يليه.

- الآيات:

النص الأول:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [النور 27].

(فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) [النور 28].

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) [النور 29].

"صدق الله العظيم"

النص الثاني:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَتْ أَذْنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [النور 58].

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [النور 59].

"صدق الله العظيم"

- شرح المفردات:

(تَسْتَأْنِسُوا)

بمعنى تسأذنوا، لكنه سبحانه وتعالى عبر عن الاستئذان بهذا اللفظ لزيادة معنى تتطلبه حرمة البيوت، ومصالح أصحابها، وحاجتهم إلى الإنفراد فيها، وتقرير حقهم في عدم السماح لأحد بدخولها، إلا برضائهم.

ولذا: كان التعبير بـ "تستأنسو" موضحاً للمؤمنين ومنبهاً لهم على ضرورة تعرفهم على وجود الأئس والرضا من أهل البيت قبل الدخول عليهم، وإلا فليتنبهوا من إذن الكاره المضطر.

(وَتُسَلِّمُوا)

أي تقولون لأهل هذا البيت "السلام عليكم" محافظين بذلك على القاعدة الأساسية التي تحفظ لكل فرد حقه في الخلوة عن الناس في بيته بعدم دخولكم عليهم بغته دون تنبيه وتسليم، ومخالفين بذلك . كذلك . تحية أهل الجاهلية إذ كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته يقول . لمن فيه . حبيتم صباحاً، حبيتم مساء (102)، ومخالفين بذلك

ما يتظاهر به البعض من العصرية والترنجة حيثما يتبادلون التحية والتسليم بكلمات عن بعض اللغات الأجنبية.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ)

أي ليس عليكم حرج، وإثم إذا دخلتم بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم دونما استئذان وتسليم.

(الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

أي العبيد والجواري الذين تملكونهم.

(وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ)

وهم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حد العقل والتمييز (103).

(ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ)

وهي هذه الأوقات الثلاث: قبل صلاة الفجر، وساعة الاسترخاء والاستراحة في الظهيرة، وبعد صلاة العشاء:

والعورة في الأصل: هي الخلل، وقد غلب إطلاقها علماً لخلل الواقع فيما يهم حفظه ويعنى بستره.

وقد أطلقت كلمة العورة على هذه الأوقات الثلاثة: من باب المبالغة أي كأنها هي نفس العورة (104).

(طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ)

(103) أبو الأعلى المروددي: تفسير سورة النور ص 221.

(104) أبو السعود: إرشاد العقل السليم 73/4.

أي كثيري التردد عليكم والمرور بين أيديكم بحكم المصالح البيتية والضرورات المعيشية.

- ملابس تشريع الاستئذان

(أ) ملابس عامة:

لما أنزل الله تعالى سورة النور في هذا العهد المدني، وجعلها حافلة بالآيات البينات والأحكام الواضحة التي تعالج الانحرافات والظواهر المرضية في المجتمع.

بدأ فيها أولاً بعلاج الأمراض والعيوب، وذلك بتفصيل الزواجر من الزنا، وعن رمي العفائف عنه.

ثم عقب ذلك: بتفصيل الزواجر عما يؤدي إلى أحدهما من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات (105)، وهذا فيه ما يحول دون نشوء المفسد في المجتمع أصلاً، واستئصال الأسباب التي تظهر لأجلها مثل هذه المفسد (106).

وكان من ذلك آيات الاستئذان هذه.

(ب) ملابس خاصة:

1- لقد كان من عادة العرب في الجاهلية دخولهم بيوت الناس قائلين "حييتم صباحاً، حييتم مساءً" بدون استئذان من أهلها، وقد تقع أنظارهم على نساءهم وهن في حالة غير جديرة بالنظر، وكان هذا الوضع مؤلماً لنفوس المسلمين، ومؤذياً لمشاعرهم. ويصور هذا الإحساس المؤلم إحدى نساء الأنصار عندما أتت إلى رسول الله ﷺ قائلة له (107).

(105) أبو السعود: إرشاد العقل السليم 54/4.

(106) أبو الأعلى المودودي النور ص 140.

(107) الواحدي: أسباب النزول ص 186.

يا رسول الله!

إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل علي، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال.

فكيف أصنع؟؟

وكانت إجابة السماء . مؤسسة لقاعدة أساسية وهي حرمة دخول بيوت الغير إلا بأذن . في نزول جبريل إلى النبي عليه السلام، بقول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

وبهذا:

أصلح الله تعالى هذا الوضع الذي طالما تأذت منه النفوس، وقرر سبحانه: أن لكل فرد حقاً في الخلوة، وأنه لا يجوز لغيره أن يتدخل فيها بدون رضاه وإذنه (108).

2- ولما كان العرب أصحاب تجارات وسفر وترحال بين مكة والشام، ويحتاجون خلال هذه السفريات إلى النزول للاستراحة أو المبيت ببعض الأماكن العامة على طرق السفر هذه، فقد أصابهم ما يشبه التحرج والتخوف حيث أنه لا ينطبق على هذه البيوت والأماكن ما ينطبق على بيوتهم الخاصة.

ولذا:

سأل الصديق أبو بكر رضي الله عنه النبي عليه السلام عقب نزول هذه الآيات قائلاً:

يا رسول الله:

أفرايت الخانات والمسكن في طرق الشام، ليس فيها ساكن.

أي: ماذا نصنع؟؟

فأنزل الله تعالى إكمالاً لما نزل:

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ).

وبهذا: تم تعليم الناس آداب الاستئذان، ومشروعيته عند دخول البيوت الخاصة، وعند دخول البيوت والمرافق والأماكن العامة.

3- ولكن!

لما أحس الناس متعة الحرية في البيوت، وحفظ تشريع الاستئذان علاقات المودة والترابط والاحترام فيما بينهم، وتنظيمها لعملية اختلاط بالنساء، وما فيها من سد الثغرات التي تجلب على المجتمع كثير المفاسد.

تطلعت نفوسهم إلى ما هو أدق من ذلك:

وهو تنظيم كيفية دخول الأقارب على بعضهم البعض، داخل البيت الواحد.

ويصور لنا هذا التطلع الواحد في كتابه "أسباب النزول" (109).

حيث يذكر في رواية عن ابن عباس أنه قال:

وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل، فرأى عمر بالة، وكره عمر رؤيته ذلك.

فقال عمر: يا رسول الله، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال بالاستئذان.

ثم يذكر في رواية أخرى عن مقاتل أنه قال:

إن أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير، وقد دخل عليها في وقت كرهته فأتت رسول الله ﷺ فقالت:

إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهه!!

وكان عمر وأسماء بنت مرثد رضي الله عنهما يستغيثان بالسما، طلباً لتشريع يحمي البيوت من المفاسد التي تنشأ من الاختلاط المألوف داخلها؛ وينظم لأهل البيت الواحد آداب دخول بعضهم على بعض ويثبت في نفس الوقت حق الفرد في خلوته ببيته.

وكان هذا التشريع الإلهي الذي ينظم الحركة داخل البيت الواحد، وبين الأقارب أنفسهم، والذي يؤسس قاعدة هامة وهي: أن العبيد والخدم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، لهم الحق في التجول والطواف داخل البيت إلا في اوقات ثلاثة، فيمنع منهم هذا الحق إلا بعد الاستئذان، الذي يحفظ للشخص حرته وللبيت سلامة أسرارها، وبعدها عن المفاسد، وذلك بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ:

مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ

وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ

وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ

ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

وبذلك: تكاملت آيات الاستئذان، وتأسست حرية الأفراد في خلوتهم داخل بيوتهم، واتضحت الأحكام التي تسد الثغرات التي قد تؤدي إلى المفاسد الاجتماعية والانحرافات الخلقية.

وبذلك . أيضاً . تكاملت أحكام السورة التي تعالج المفاسد الاجتماعية والتي تقي . كذلك . منها قبل وقوعها .

– كيفية الاستئذان:

ولما كان تشريع الاستئذان بالأمر الجديد على جماعة المسلمين فقد وضع الرسول ﷺ كيفية في النقاط التالية:

ينبغي: أن يستأذن الطارق ثلاث مرات وقد كان ذلك سنة النبي عليه السلام، فمن قيس بن سعد ابن عبادة:

أنه قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا، فقال:

السلام عليكم ورحمة الله.

فرد سعد رداً خفياً قال قيس: فقلت:

ألا تأذن لرسول الله ﷺ!

فقال: ذره يكثر علينا من السلام.

فقال رسول الله ﷺ.

السلام عليكم ورحمة الله.

فرد سعد رداً خفياً.

ثم قال رسول الله ﷺ.

السلام عليكم ورحمة الله.

ثم رجع رسول الله ﷺ.

فأتبعه سعد وقال:

يا رسول الله: إني كنت أسمع تسليماً، وأرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام.

قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ (110).

وحكمه جعل الاستئذان ثلاث مرات:

أن الأول: به يحصل الإعلام لأهل البيت والتنبيه بوجود طارق الباب

وبالثاني: يحصل التهيؤ والاستعداد لمقابلة هذا الطارق، أو عدم مقابله.

وبالثالث: يحصل الإذن له بالدخول، أو التصريح له بعدم الدخول، أو فهمه بنفسه عدم وجود أحد بإذن بالدخول، أو عدم وجود أحد أصلاً (111).

لا ينبغي: أن يكون الاستئذان ثلاث مرات متوالية، بل يكون بين كل استئذان وآخر فصل من الزمن، حتى إذا كان صاحب الدار مشغولاً بأمر يمنعه من الإذن فيلفرغ منه (112). فضلاً عن أن التوالي السريع لا يحقق حكمة التعداد.

لا يجوز: أن يلحّ الزائر في الاستئذان، أو يلتزم باب الدار إن لم يجد الإذن من صاحبها. بل عليه: أن يستأذن ثلاثاً، فإن لم يجد الإذن من صاحب الدار، أو أبي مقابلته، فليرجع؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعدر (113).

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ)

وينبغي على الطارق: أن لا يقف عند الاستئذان في مواجهة الباب، بل عليه أن يقف بعد الطرق على يمين الباب أو على يساره، حتى لا يقع نظره عند فتح باب المنزل على عورة، أو على شيء لا يجب أهل البيت أن يطلع عليه أحد.

وكان رسول الله ﷺ: إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن، أو الأيسر، ويقول: "السلام عليكم، السلام عليكم" (114) وكان يقول عليه السلام: "جعل الاستئذان من أجل البصر".

(111) انظر: الجمل في الفتوحات الإلهية 217/3.

(112) المودودي: سورة النور ص 146.

(113) ابن كثير: 281/3.

(114) ابن كثير 279/3.

وينبغي على الطارق: أن يذكر اسمه، أو ما يعرفه به أهل البيت، عندما يسأل من في البيت عن الطارق، ولا يقول "أنا" كما يفعل الكثيرون.

وقد كره النبي عليه السلام قول "أنا" من المستأذن.

ولذا ورد عن جابر بن عبد الله أنه قال: استأذنت على النبي ﷺ

فقال: من هذا؟

فقلت: أنا.

فقال النبي عليه السلام: أنا أنا!!

كأنه كره ذلك.

حيث إن كل أحد يعبر عن نفسه "بأنا" وفي هذه الحالة لا يحصل المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس بالمأمور به. (115)

وكانت عادة كثير من الصحابة الإفصاح عن أنفسهم عند استئذانهم:

فيروى أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ وهو في مشربة له فقال:

السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك، أيدخل عمر؟

وكذلك فعل أبو موسى الأشعري، حينما جاء إلى عمر بن الخطاب وقال:

السلام عليكم، هذا أبو موسى.

السلام عليكم، هذا الأشعري (116).

(115) ابن كثير نفس المرجع.

(116) الجبل: الفتوحات 217/3.

الثانية دخول البيوت الخاصة:

وكما فصلت السنة النبوية الشريفة كيفية الاستئذان وآدابه، فصلت البيوت التي يستأذن الشخص في دخولها؛ واقتضى البحث تقسيم البيوت إلى ثلاثة:

بيوت الأجنب.

بيوت الأقارب.

بيت المرء نفسه.

(أ) فلدخول المرء بيوت الأجنب.

أمر الله سبحانه وتعالى بالاستئذان، ووضحت السنة النبوية كيفية هذا الاستئذان.

وقرر المولى: أن لكل شخص الحق في الإذن لمن شاء بدخول بيته، أو منعه من ذلك: (وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا) .

وقرر أيضاً: احترام البيوت في غياب أصحابها؛ فلا يحل لأحد الدخول فيها أثناء غيابهم، أو غياب من يملك منهم الإذن بالدخول (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا) أصلاً، أو ممن يملك الإذن (فَلَا تَدْخُلُوهَا).

وقررت السنة كذلك (117): أن حق الإنسان في الانفراد والخلوة بنفسه غير مقصور على بيته فقط، بل جعلته حقاً عاماً لا يجوز لأحد بموجبه أن يطلع على دار غيره، أو يدخل فيها النظر، بل ولا أن يقرأ - كذلك - رسالته دون إذنه، كما روى عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ "من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر في النار".

وقد وضحت الآية الكريمة للمؤمنين في هذا الصدد قاعدة أساسية، وهي عدم جواز دخول بيوت الغير لكل الناس، وفي كل الأوقات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ).

وأن الاستثناء من هذه القاعدة: هو الدخول بعد الإذن (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) على النحو الذي تفصل قبل ذلك، وذلك لصالح جماعة المسلمين، وترابطهم، وتوادهم، ولرفع الجفوة بينهم لولا هذا الاستثناء.

(ب) وينطبق نفس الكلام على دخول الإنسان بيتاً فيه أقاربه، فقوله تعالى (غَيْرَ بُيُوتِكُمْ) يشمل بيوت الأجانب ويشمل كذلك بيوت الأقارب.

فقد روى عطاء بن يسار أن رجلاً قال للنبي p:

أستأذن على أمي؟

قال: نعم.

قال: إني أخدمها!!

قال: أستأذن عليها.

قال: فعاوده ثلاثاً.

قال النبي عليه السلام: أحب أن تراها عريانه؟

قال: لا.

قال: فاستأذن عليها.

وعن ابن مسعود وابن عباس، أنه قيل للنبي عليه السلام.

أستاذن علي أخوتي وهن في حجرتي معي في بيت واحد...؟

قال: نعم.

فرددت عليه ليرخص لي.

فأبي.

قال: أتحب أن تراها عريانه؟

قلت: لا.

قال: فاستأذن عليها.

فراجعته.

فقال: أتحب أن تطيع الله؟

قلت نعم.

قال: فاستأذن عليها(118)

وكان عبد الله بن مسعود يقول: عليكم الإذن على أمهاتكم" وقال طاووس في رواية عن أبيه، أنه قال: "ما من امرأة أكره إلي أن أرى عورتها من ذات محرم"، قال: "وكان يشدد في ذلك"(119).

والعلة في كل ذلك: أن الأم أو الأخت قد تكون على حالة لا تحب أن تراها فيها(120)، فما أجملها من مراعاة للمشاعر! وما أكرمها من محافظة على الحياء!!

(118) ابن العربي: أحكام القرآن 1349/3.

(119) ابن كثير 280/3.

(120) ابن العربي: أحكام القرآن 1349/3.

(ج) أما في بيت المرء نفسه

فإن كان يقيم فيه معه زوجته، أو أخته، أو أمه؛ فلا بد أن يستأذن لما مر قريباً.

وإن لم يكن فيه غير زوجته.

فلا إذن عليه (121).

قال ابن جريج: قلت لعطاء:

أيستأذن الرجل على امرأته؟

قال: لا.

وهذا محمول على عدم الوجوب.

وإلا: فالأولى:

أن يعلمها بدخوله، ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود، رضي الله عنها قالت:

كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب؛ تنحنح وبنق، كراهة أن يهجم منا على أمر نكرهه.

وجاء في الصحيح:

عن رسول الله ﷺ: "أنه نهي أن يطرق الرجل أهله طروقاً. وفي رواية: ليلاً بتخونهم.

(121) ابن العربي نفس المرجع.

وفي الحديث الآخر:

أن رسول الله ﷺ: قدم المدينة نهاراً، فأناخ بظاهرها، وقال "انتظروا حتى ندخل عشاءً".
يعني آخر النهار . حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة" وإذا كان هذا في بيت المرء نفسه!.

فالأولى من ذلك: إذنه على محارمه، والواجب مراعاته أكثر من الجميع وإتباعه دون
تلكؤ أو تباطؤ: هو الاستئذان في جميع الأوقات، وفي جميع بيوت الآخرين.

دخول البيوت العامة:

تتناول آيات الاستئذان الحديث عن آدابه لدخول:

(أ) البيوت الخاصة.

(ب) البيوت العامة.

وقد تناولنا في النقطة السابقة الحديث عن آداب الاستئذان في دخول المرء بيوت الغير،
سواء كان هذا الغير، أجنبياً أو غير أجنبي.

ولما كان قول الحق تبارك وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ...)

عام في جميع: الأحوال، والأقوات، والأشخاص، سواء كانت هذه البيوت بها أحد، أو
ليست كذلك.

فإننا نجد أن الحال في قوله تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ)

أخص من ذلك، حيث إن الحديث هنا خاص بالبيوت التي يتوافر فيها شرطان:

الشرط الأول: كونها (غير مسكونة)

الشرط الثاني: أن يكون للشخص في دخولها منفعة (فيها متاع لكم)

وذلك مثل:

المحلات التجارية: المدارس، الفنادق، وكذلك جميع المرافق العامة.

ولما كان هذا الإذن العام بدخول هذه الأماكن العامة قد يستتبعه دخول بعض الناس إلى هذه الأماكن لأغراض غير مشروعة، بسبب هذا الوضع بها من حيث: عموميتها، وعمومية الانتفاع بها.

فقد ذيل الله تعالى هذا التصريح العام بتحذير إلى جماعة المؤمنين من عواقب سوء استعمال هذه المرافق العامة، وعدم مشروعيه بعض نوايا الداخلين إليها بقوله تعالى. (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

أي: فإن دخل أحد في موضع من هذه المواضع باسمها الظاهر ولمنفعتها البادية، ونيته غير ذلك، فالله تعالى عليم بما أبدى؛ وبما كتم، يجازيه عليه، ويظهره منه (122).

وذلك حتى يضمن المولى سبحانه وتعالى لهذه المرافق العامة: حسن استعمالها، ونظافتها، ودوام نفعها، وتلافياً لأن تكون بؤرة إفساد ومركز إضرار بالمجتمع الإسلامي.

هذا أدب الإسلام، وهذه هي قواعده لدخول الأماكن العامة.

أما الآن: وقد تبدلت الحال غير الحال والناس غير الناس، فقد أصبحت بعض الأماكن العامة تدار لأغراض ظاهرها النفع العام، وباطنها يموج بالفتن والمفاسد، والأدهى من

ذلك أن كثيراً من المحالات العامة تدار . وفي هذا البلد الإسلامي . وظهرها لأعفن الأغراض وأبشعها، وأبعدها عن مجتمع الإسلام. وإن عمومية هذه الأماكن، وكثرتها، لمشجع على إفساد شباب هذه الأمة، ومضيق للجهود التي تبذل للنهوض بمستوى هذا البلد وأهله، وإن الأمل كبير في حكوماتنا أن تحافظ بشرطتها ورجال آدابها على حسن استعمال المرافق العامة، وعدم إدارة ما يساعد على إفساد أبناء الأمة منها.

الاستئذان داخل البيت الواحد:

(أ) تمهيد :

ولما فصل الله تعالى آداب الاستئذان بالنسبة لدخول البيوت الخاصة، والاستفادة من الأماكن والمرافق العامة، ووضح ذلك النبي -عليه السلام- بأقواله وأفعاله، على النحو الذي تقدم، أتبعه سبحانه وتعالى بما يوضح آداب الحركة داخل البيت الواحد، وقواعد الاستئذان بين أفرادهم والمقيمين فيه حيث قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ....)

ونلاحظ: أن آيات الاستئذان بين أفراد البيت الواحد قد تأخرت عن آيات الاستئذان لدخول بيوت الغير والأماكن العامة، وكذلك قد فصل بينهما بثمان وعشرين آية، تتضمن التمهيد الذي يوجب الامتثال بالأوامر، والنواهي الواردة فيها؛ 122 وكل هذا: زيادة اعتناء، وشدة اهتمام بهذا النوع من الاستئذان الداخلي، خاصة وأنه غير سهل التنفيذ، وغير ثابت المعيار في التطبيق، ويدخل فيه التساهل أكثر ما يدخل في الاستئذان في دخول بيوت الغير بما يترتب عليه من الأضرار والأخطار مالا تحمد عقباه.

ولذا، ناسب أن يؤخره المولى سبحانه وتعالى، ويفصل بين النوعين على هذا النحو، حتى يقدم لهم من آياته البينات ما يجعلهم:

(إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

حتى ولو خفيت عليهم علل هذه الأحكام.

بينما الاستئذان الأول ظاهر الضرورة بالنسبة للجميع، ولذا ناسب أن يأتي به مباشرة عقب آيات العلاج، دون احتياج إلى هذا الفاصل بين الاستئذان العام والخاص.

(ب) القاعدة:

ونلاحظ . أيضاً . أن القاعدة الأساسية التي تفهم من آيات هذا النوع الداخلي من الاستئذان هي: أن لا يستأذن الخدم والعبيد والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم على أهل البيت الواحد في جميع الأوقات.

وذلك: بحكم المصالح البيئية، والضرورات المعيشية، التي تعوق سهولة الحركة فيها فرضية الاستئذان على مثل هؤلاء في جميع الأوقات.

(ج) الاستثناء:

وكان الاستثناء من هذه القاعدة: هو فرض الاستئذان على هؤلاء المذكورين في هذه الأوقات .

(د) سبب هذا الاستثناء:

وكان هذا: اعترافاً بحق صاحب البيت في أن يختلي بنفسه، وينفرد في بيته في هذه الأوقات.

وتمكيننا للمسلمين من التحفظ على أسرارهم، والحصول على راحتهم في بيوتهم بشتى الطرق ، وتنبيهاً للمسلمين . كذلك . على الحذر من فرط الأمان للخدم والعبيد والأطفال الصغار وهو في نفس الوقت رفع للحرج عن أهل البيت الواحد بسبب أن

هؤلاء (طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ) ولو لم يوجد هذا الاستثناء على هذا النحو؛ لكان في ذلك حرج ومشقة شديدين.

وأن هذا الاستثناء بفرض الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة بالذات: إنما هو لمصلحة المسلمين، والعمل على توفير أسباب الراحة لهم حتى داخل بيوتهم؛ إذ إن هذه الأوقات الثلاثة "هي التي يحتاج المرء أن يستريح فيها ويخلص من الكلف ومراعاة الواجبات نحو الغير، وهي التي يحلو للمرء أن يطرح فيها الاحتشام، ويملك في نفسه حرية التصرف، فيختار الوضع الذي يروقه، والهيئة التي توافقه، وهو آمن من إطلاع الغير عليه مهما كان ذلك الغير، وما منا إلا من يشعر بأن لابد للمرء من وقت يتمتع فيه بالحرية الكاملة؛ وأي وقت هو أحوج فيه . إلى هذا . من هذه الأوقات الثلاثة؟

وقت ما قبل صلاة الفجر: حين يستيقظ من نومه ويهب من فراشه فيخلع ثوباً ويلبس ثوباً، ولعله بحاجة إلى تدليك بدنه أو إلانة أعضائه ولكل امرئ عاداته الخاصة به.

ومن بعد صلاة العشاء: حيث يكون قد فرغ من عمله وانتهى من عبادته، وركنت نفسه إلى أن يأوي لفراشه فهو يخلع ثياب اليقظة، ويلبس ثياب النوم، وربما كان يميل إلى الأنس بأهله فلا منغص له في هذه الحالة أكثر من أن يفاجأ بدخيل عليه مهما صغر سنه، أو قوى اتصاله به.

وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة : وهو الوقت الثالث ، وهو ليس محدوداً في ذاته تحديداً تاماً، فرب امرئ دعاه عمله إلى تعجيل القيلولة ، وآخر يرى صالحه في تأخيرها، وقد يستغني عنها ثالث بالمرّة (123).

(هـ) عود على بدء:

ولما تعرضت هذه الآيات للأطفال ، ووجوب استئذانهم في هذه الأوقات الثلاثة؛ عقب عليه بحكم يتعلق بهم، ويناط تنفيذه ببلوغهم سن العقل والتمييز (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي بتغير حكمهم ووضعهم، ويفرض عليهم من أدب الاستئذان وقواعده ما يفرض على غيرهم من الأجانب الذين سبق حكمهم متى أرادوا دخول بيوت الأجانب عندهم أو بيوت الأقارب إليهم.

ومن هذه اللفتة الكريمة؛ والتنبيه الإلهي الحكيم نفهم:

أن الأطفال يتغير وصفهم في بيتهم وبين ذويهم بتغير سنهم وإدراكهم تغيراً يهدف المحافظه على أسرار البيوت، وحرية أصحابها في التمتع بأوقاتهم فيها، والعمل بقدر الإمكان على عدم الإطّلاع على العورات.

أنه غير مسموح . داخل البيت الواحد . بدخول أحد على أحد دون استئذان سوى دخول الزوج على زوجته أو الزوجة على زوجها.

إن البيت الإسلامي محصن ومصان إلى أبعد الحدود: تلافياً للفتن ودرءاً للمفاسد وقتلاً للشبه، وذلك بفرض طلب الاستئذان في دخوله بالنسبة للأجنبي والقريب على السواء، وتمام صيانتها بفرض طلب الاستئذان . كذلك . داخل البيت الواحد بين أفرادهم أنفسهم في أوقات معينة، تستوجبها الضرورة.

ولهذا كله ...!

ناسب أن يختم المولى سبحانه وتعالى تتتميم آيات الاستئذان بقوله تعالى:

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

أي بمثل هذا البيان الشافي الوافي يبين الله تعالى لكم الآيات والأحكام والقواعد التي تنفعكم، وهو سبحانه وتعالى: عليم بما يناسب مصالحكم من تشريع، عليم بمن يمثل

أحكامه منكم، ومن يخالفها، حكيم في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم
معاشاً ومعاداً⁽¹²⁴⁾.

الحكم الثامن: الحث على الزواج

[وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ
مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ]

هذا أمر من الله عز وجل للأمة بالزواج، والبعد عن العزوبة، وهو في ذات الوقت،
للمسؤولين في الأمة الإسلامية.. أن يزوجوا ويساعدوا بالمال من يقف الفقر في طريقهم
عائقاً لهم عن النكاح.

(وأنكحوا) أي: زوجوا وساعدوا في الزواج، صنفين من الناس:

الصنف الأول: (الأيامى منكم) وهم الأحرار الذين لا أزواج لهم، من الجنسين، سواء
سبق لهم الزواج، أو لم يسبق.

الصنف الثاني: (والصالحين من عبادكم وإمائكم) وهم الأرقاء، من العبيد والإماء،
الصالحين منهم والصالحات؛ ليحصن سيدهم بهذا الترويج لهم دينهم ويحفظ عليهم
صلاحتهم.

(إن يكونوا) أي: أفراد هذين الصنفين.

(فقراء يغنيهم الله من فضله) أي: لا يمنع فقر الرجل أو المرأة من الزواج، فإن المار غاد
ورائح ولعل فقير اليوم غني العدم، خاصة: إذا كان الأمل والثقة في فضل الله كبير.
(والله واسع) في الإفضال، لا ينتهي فضله عند حد.

(124) أبو السعود، إرشاد العقل السليم 74/4.

(عليم) بمقادير ما يصلح عباده من الإفضال والرزق.

هذا...

وأما من يملك أمر نفسه ولم يزوجه، ولي الأمر، أو لم يساعد في تزويجه لسبب أو لآخر فإن الله عز وجل يأمره بطلب العفة، والاجتهاد في تحصيلها.

حيث يقول: [**وَلَيْسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا**] أي: لا يجدون ما به ينكحون من المهر والنفقة، وخلافة، وتعذر عليهم الزواج، فعليهم.. أن يطلبوا العفة، ويستعفوا عن الحرام .

[**حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**] بأن يرزقه ما يتزوج به، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه الشهوة، أبو يكسر شهوته بالصيام، كما في الحديث الشريف. ويلاحظ:

1- أن الزواج⁽¹²⁵⁾، هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة.

فيجب: أن تزول العقبات من طريق الزواج؛ لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها. والعقبة المالية : هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس. والإسلام نظام متكامل فهو يفرض العفة وقد هيأ لها أسبابها، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء.

فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ: إلا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور، عامدًا غير مضطر.

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة، أن تعين من يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال: [**وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**]

ويقول p : " ثلاث حق على الله عونهم.. المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف" (126).

125 - سيد قطب..في ظلال القرآن (النور...الآية 32)

126 - أخرجه الترمذي والنسائي.

2- بالنسبة لحكم النكاح، والوارد في قوله تعالى: (وأنكحوا)⁽¹²⁷⁾.

أختلف فيه العلماء، حسب اختلاف حال المؤمن من خوف العنت والمشقة، وعدم صبره ، ومن قوته على الصبر، وزوال المشقة عنه.

فإذا خاف الهلاك .. في الدين، أو الدنيا، أو فيهما: فالنكاح واجب.

وإذا لم يخف شيئاً من هذا: فالنكاح مباح - فيما يرى الإمام الشافعي - لأنه قضاء لذة فكان مباحاً - عنده - مثل الأكل والشرب.

وهو مستحب - عند مالك وأبي حنيفة - لقوله ρ: "النكاح: سنتي : ومن رغب عن سنتي: فليس مني".

وعلى ذلك⁽¹²⁸⁾: فمن تآقت نفسه للزواج؛ فإن وجد الطول.. من المهر والنفقة: فالمستحب له أن يتزوج ، وإن لم يجد ذلك: فعليه بالاستعفاف، ولو بالصوم؛ فإن الصوم له وجاء.

ومن لم تتق نفسه إلى النكاح: فالأولى له.. التخلي لعبادة الله.

3- هذه الآية: دليل على ضرورة تزويج الفقير.

ولا ينبغي أن يقول: كيف أتزوج وليس لي مال؟

حيث إن رزقه على الله، وهو [الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ] ⁽¹²⁹⁾، وقد زوج النبي ρ المرأة، التي أتته تهب له نفسها، لمن لي له إلا إزار واحد⁽¹³⁰⁾.

4- قوله تعالى: [إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ]

هذا.. قطع لحجة من يمتنع عن النكاح بسبب الفقر⁽¹³¹⁾.

127 - القرطبي. الجامع لأحكام القرآن (النور.. الآية 32)

128 - القرطبي.. نفس المصدر (النور... الآية 32)

129 - الذاريات: 58

130 - القرطبي: نفسه.

131 - الجمل. ز الفتوحات الإلهية.

ورُوي عن قدماء الصحابة ما يدل على أهم.. رأوا: ذلك وعدا من الله تعالى بالغنى لمن يتزوج⁽¹³²⁾.

فعن أبي بكر رضي الله عنه، قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى.

وقال عمر رضي الله عنه: عجي لمن لا يطلب الغنى في النكاح.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: التمسوا الرزق بالنكاح.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: التمسوا الغنى في النكاح، وتلا هذه الآية.

وقال طلحة بن مطرف رضي الله عنه: تزوجوا.. فإنه أوسع لكم في رزقكم وأوسع لكم في أخلاقكم، ويزيد في مروءتكم.

فإن قيل: فقد نجد الناكح.. لا يستغني، أو نجد من كان غنيا، فيتزوج فيصير فقيراً.

فالجواب: أن هذا ليس وعدا، لا يقع فيه حُلف.

بل المعنى: لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم، أو فقر من تريدون الزواج منها.. ففي فضل الله ما يغنيهم .

خاصة: وأن المال غاد ورائح وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح.

وقيل المعنى: يغنيهم الله من فضله إن شاء كقوله تعالى [**وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ**]⁽¹³³⁾.

وقيل المعنى: إن يكونوا فقراء إلى النكاح، يغنيهم الله بالحلال ليتعففوا عن الزنى.

5- هذه الآية الكريمة: أصل في الحث على الزواج سواء كان (الأيامى): فقراء، أو غير فقراء⁽¹³⁴⁾.

وقد فهم السلف الصالح هذا الأمر.. حق الفهم، وحرصوا على تنفيذه طاعة لله تعالى، وعفة للنفس.

132 - الفخر الرازي ..التفسير الكبير (النور ..الآية32 القرطبي..الجامع لأحكام القرآن (النور32).

133 - التوبة: 28

134 - انظر : الإمام الغزالي..إحياء علوم الدين(ربيع العادات ، كتاب النكاح، يتصرف واختصار.

فهذا: ابن مسعود رضي الله عنه، يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام.. لأحببت أن أتزوج لكي لا ألقى الله عزبا.

وهذا: عمر رضي الله عنه، كان يكثر من النكاح، ويقول: ما أتزوج إلا لأجل الولد. وكان بعض الصحابة: قد انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجة، إن طرقته. فقال له رسول الله ﷺ: ألا تتزوج..؟

فقال: يا رسول الله.. إني فقير، لا شيء لي، وأنقطع لخدمتك، فسكت ثم عاد ثانيا.

فأعاد الجواب

ثم تفكر الصحابي، وقال: والله لرسول الله... أعلم بما يصلحني في دنياي، وأخرتي، وما يقربني إلى الله.. مني، ولئن قال لي الثالثة، لأفعلن.

فقال له الثالثة: ألا تتزوج؟

قال: فقلت: يا رسول الله... زوجني

قال: اذهب إلى بني فلان.. فقل: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تزوجوني فئاتكم.

قال: فقلت يا رسول الله.. لا شيء لي

فقال لأصحابه: أجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب..؟

فجمعوا له.

فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه.

هذا..

"وينبغي أن نضع في حسابنا مع هذا أن الإسلام بوصفه نظاما متكاملا يعالج الأوضاع

الاقتصادية بصفة عامة والتي تعيق عن الزواج بصفة خاصة علاجا أساسيا.

حيث يجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب، وتحصيل الرزق وعدم الحاجة إلى

مساعدة بيت المال.

ولكنه في الأحوال الاستثنائية: يلزم بيت المال ببعض الإعانات.

فالأصل في النظام الاقتصادي الإسلامي: أن يستغني كل فرد بدخله.

ولذا: يجعل تيسير العمل، وكفاية الأجر.. حقا على الدولة واجبا للأفراد.
أما الإعانة من بيت المال.. فهي حالة استثنائية، لا يقوم عليها النظام الاقتصادي في الإسلام.

فإذا وجد في المجتمع الإسلامي بعد ذلك أيامي: فقراء وفقيرات تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج: فعلى الجماعة أن تزوجهم" (135).

6- من تمام الفائدة: أن نذكر فوائد النكاح، من باب الحث عليه.
وفوائده خمسة (136).

(الفائدة الأولى) الولد، وهو الأصل، الذي وضع له النكاح.

وفي التوصل إلى الولد عن طريق النكاح: قرينة إلى الله تعالى من أربعة أوجه:

1- موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد؛ لإبقاء جنس الإنسان.

2- طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته؛ حيث يقول ﷺ: "خير نسائكم: الودود، الولود" (137).

3- طلب التبرك بدعاء الولد الصالح له بعد وفاته؛ حيث يقول ﷺ: "إذا مات ابن آدم.. انقطع عمله، إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (138).

4- طلب الشفاعة بموت الولد الصغير، قبل والديه؛ حيث يقول ﷺ: "لا يموت لأحد من المسلمين.. ثلاثة من الولد: فتمسه النار إلا تحله القسم" (139)، ويقول: "ما منكن من امرأة تقدم بين يديها، ومن ولدها، ثلاثة: إلا كانوا لها حجابا من النار، فقالت المرأة واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ "واثنين".

وعن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا..؟

135 - سيد قطب. في ظلال القرآن (النور 22)

136 - أنظر: الغزالي..المرجع السابق

137 - أخرجه البيهقي، وقال: روي بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلا.

138 - أبو داود. بك الوصايا، باب فيما جاء في الصدقة عن الميت.

139 - مسلم كتاب البر، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه.

قال: نعم...صغارهم: دعاميص الجنة، أي صغار أهلها، يتلقى أحدهم أباه، أوقال أبويه- فيأخذ بثوبه- أو قال بيده- كما آخذ أنا بصَنْفَة -بطرف -ثوبك هذا، فلا ينتهي- أي: يتركه -حتى يدخله الله وأبويه الجنة،.

وحُكي⁽¹⁴⁰⁾: أن بعض الصالحين، كانوا يعرضون عليه التزويج، فيأبي برهة من دهره.

قال: فانتبه من نومته ذات يوم، وهو يقول: زوجوني ، زوجوني

فزوجوه

وسئل عن ذلك...فقال : لعل الله يرزقني ولدا، يقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة. ثم قال : رأيت في المنام.. كأن القيامة قد قامت، وكأني في جملة الخلائق في الموقف، وبي من العطش ما كاد أن يقطع عنقي، وكذا الخلائق من شدة العطش والكرب. فنحن كذلك: إذ ولدان.. يتخللون الجميع عليهم مناديل من نور، وبأيديهم أباريق من فضة، وأكواب من ذهب، وهم يسقون الواحد بعد الواحد، ثم يتخللون الجمع.. ويتجاوزون أكثر الناس.

فمددت يدي إلى أحدهم..وقلت: اسقني فقد أجهدي العطش.

فقال: ليس لك فينا ولد إنما نسقي آباءنا.

فقلت : ومن أنتم...

فقال: نحن من مات من أطفال المسلمين.

(الفائدة الثانية) غض البصر، وحفظ الفرج وكسر الشهوة، والتحصن من الشيطان.

حيث إن النكاح بسبب دفع غائلة الشهوة: مهم في الدين.

لأن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى: جرّت إلى اقتحام الفواحش، وإليه

أشار النبي عليه السلام والسلام، "إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه: فزوجوه؛ إلا

تفعلوا.. تكن فتنة في الأرض وفساد عريض"⁽¹⁴¹⁾.

140 - الإمام الغزالي .. إحياء علوم الدين (ربيع العادات - كتاب النكاح)

141 - ابن ماجة..ك النكاح، باب الإكفاء، وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي بقوله: والحديث قد أخرجه الترمذي، ورجح إرساله، ثم أخرجه من حديث أبي حاتم المزني، وقال فيه: إنه حسن.

فإن كان صاحبها.. ملجماً بلجام التقوى فغايبته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة، فيغض البصر، ويحفظ الفرج.. فأما حفظ القلب عن الوسوس والفكر فلا يدخل تحت اختياره، بل لا تزال النفس تجاذبه، وتحته بأمور الوقاع، ولا يفتر عنه الشيطان الموسوس إليه في أكثر الأوقات وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجري على خاطره يجري على خاطره من أمور الوقاع ما لو صرح به بين يدي أحسن الخلق: لا ستحي منه، والله مطلع على قلبه، والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق. ورأس الأمر للعبد في سلوك طريق الآخرة: قلبه.

والمواظبة على الصوم: لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن ينضاف إليه.. ضعف في البدن، وفساد في المزاج.

ولذلك : قال ابن عباس : "لا يتم نساك الناس : إلا بالنكاح".

الفائدة الثالثة: تروح النفس، وإيناسها بالمجالسة والنظر، والملاعبة، إراحة للقلب، وتقويه له على العبادة.

حيث إن النفس ملول، وهي عن الحق نُفُور لأنه على خلاف طبيعتها. وهي : إذا كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالف طبيعتها.. جمحت، وأبت، وإذا روجت - بالحلال - في بعض الأوقات.. قويت ، ونشطت.

وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة: ما يزيل الكرب، ويروح القلب.

وينبغي: أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات.

ولذلك.. قال الله تعالى: (ليسكن إليها)⁽¹⁴²⁾.

وقال على رضي الله عنه: روحوا القلوب ساعة؛ فإنها إذا أكرهت عميت.

الفائدة الرابعة:

تفريغ القلب عن تدبير المنزل، وتهئية أسباب المعيشة.

حيث إن الإنسان، ولو لم يكن له شهوة الوقاع، يتعذر عليه العيش في منزله وحده.

إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل: لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعمل.

ومن هنا: فالمرأة الصالحة، المصلحة للمنزل.. عون على الدين.. بهذه الطريق.
واختلال هذه الأسباب : شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش.
ولذلك قال أبو سلمان الدرايني: الزوجة الصالحة.. ليست من الدنيا؛ فإنها تفرغك
للآخرة، وإنما تفرغها.. بتدبير المنزل، وبقضاء الشهوة جميعا.
وان عمر بن الخطاب رضي الله عنه... يقول: ما أعطي العبد- بعد الإيمان بالله -
خيرًا من امرأة صالحة.

الفائدة الخامسة:

مجاهدة النفس ورياضتها، بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل والصبر على
أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن، وإرشادهن إلى طريق
الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربيته لأولاده.
وكل هذه : أعمال عظيمة الفضل.

حيث إنها: رعاية وولاية، والأهل والولد: رعية ، وفضل الرعاية...عظيم
وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره: كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من
صبر على الأذى، كمن رفه نفسه وأراحها.
ولذلك..

قال بشر: فُضِّلَ عَلَيَّ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، بثلاث : إحداهما أنه يطلب الحلال لنفسه
ولغيره.

وقال بعضهم لبعض العلماء: من كل عمل.. أعطاني الله نصيبا منه، حتى ذكر: الحج،
والجهاد، وغيرهما.

فقال له: أين أنت من عمل الأبدال؟

قال: وما هو؟

قال: كسب الحلال، والنفقة على العيال..

وقال ابن المبارك، وهو مع إخوانه: تعلمون عملا أفضل مما نحن فيه.

قالوا: ما نعلم ذلك.

قال: أنا أعلم.

قالوا: فما هو؟

قال: رجل متعفف، ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياما متكشفين، فسترهم وغطاهم بثوبه.. فعمله: أفضل مما نحن فيه.

وفي الحديث:

" من عال ثلاث بنات: فأدبهن وزوجهن ، وأحسن إليهن.. فله الجنة"(143).

وقال عليه الصلاة والسلام: "ما أنفق الرجل على أهله: فهو صدقة، وإن الرجل: ليؤجر في رفع اللقمة إلى فيّ امرأته"(144).

وهذا كله.. داخل في مضمون قوله تعالى: [وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] [النور: 32].

هذا.. وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بإنكاح الصالحين.. من العبيد والإماء: أمر عز وجل -فيما يلي- بمكاتبة من يطلب ذلك منهم؛ ليكون حراً، فيتصرف في نفسه، وذلك وسيلة من وسائل تحرير العبيد، قبل أن يسمع العالم عن تحرير العبيد..!

الحكم التاسع: المكاتبة

يقول رب العزة:

[... وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...]

في سبب نزول هذه الآية.. بهذا الحكم : أخرج ابن السكن، عن عبد الله بن صبيح، قال: كنت مملوكا لحو يطب بن عبد العزى.. فسألته الكتابة، فأبي..؟

فنزل قوله تعالى (وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ) الآية(145)

ومعنى الآية..

(بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أي: من العبيد والإماء، الذين تملكوهم.

143 - رواه: أبو داود، واللفظ له ، والترمذي ورجاله ثقات.

144 - متفق عليه.

145 - الألوسي.. روح المعاني(النور.. الآية 33) والدر المنثور، والسائيس .. آيات الأحكام (النور.. الآية 33).

(فَكَاتِبُوهُمْ) وهذه هي الكاتبة.

ومعناها: أن يكتب الرجل عبده أو أمته، على مال يُدفع إليه، منجما، أي بالتقسيط، فإذا أداه العبد أو الأمة فهو حر.

ويطلبها العبد من سيده، ويجب على السيد أن يجيبه إلى طلبه.. بموجب الآية الكريمة (فَكَاتِبُوهُمْ) .

وصورتها: أن يقول السيد للمملوكه- رجلا كان أو امرأة- كاتبتك على ألف مثلا، فإن أديتها: صرت حراً.

وصيغتها أن يكتب السيد.. ما صيغته: كتبت على نفسي أن تعتق مني.. إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك.. لتصير حراً.

أو بصيغة أخرى: يكتب السيد.. ما صيغته: كتبت عليك الوفاء، وكتبت على نفسي عتقك.

وهذا..

(إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) أي: أمانة، وتدوينا، وقدرة على الكسب.

وبعد أن خاطب المولى سادة العبيد، وحثهم على مكاتبة مملوكيهم لتمكينهم من الحصول على حريتهم..!

يتوجه ربنا عز وجل إلى جماعة المسلمين.. يحثهم على مساعدة هؤلاء العبيد في الحصول على حريتهم، وذلك عن طريق مساعدتهم ماليا.

فيقول سبحانه وتعالى:

(وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) أي: ساعدوهم في تحقيق غرضهم بإيتائهم بعضا

مما أنعم الله عليكم به من المال، ولو عن طريق إعطائهم سهمهم في مال الزكاة.

وهذا الأمر للمسلمين بالمساعدة.. من باب الوجوب.

وعند الإمام الشافعي رحمه الله أن هذا الخطاب: موجه إلى مالكي هؤلاء العبيد وسادتهم.

ومعناه: أسقطوا عنهم من المبلغ الذي كاتبتموهم عليه بعضا منه.

وعلى هذا: فالأمر في الآية.. من باب الندب.
هذا وفي الآية الكريمة بعض الأحكام نوضحها فيما يلي:
أولاً: ما الحكم لو طلب العبد المكاتبه، ورفض سيده طلبه؟
اختلف الفقهاء في ذلك.. على النحو التالي.
أ) ذهب فريق من العلماء: إلى أن الموافقة على طلب العبد، ومكاتبته.. واجب على السيد.

ومن هؤلاء: عطاء ، وعمرو بن دينار، والضحاك، وابن سيرين، وداود
وحكاه بعض الناس: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيرهم⁽¹⁴⁶⁾.
دليلهم...

1- قوله تعالى **(فَكَاتِبُوهُمْ)** فإنه أمر وظاهر الأمر للإيجاب.
2- سبب نزول الآية .. يدل على الوجوب.
3- ما رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد ، وابن جرير، عن أنس بن مالك رضي الله
عنه قال: سألتني: (سيرين) المكاتبه ، فأبيت عليه.
فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخبره... فأقبل عليّ بالدره وتلا قوله تعالى: **(فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)**.

وفي رواية : أنه قال: كاتبه أو لأضربنك بالدره.
وفي رواية أخرى: أنه حلف عليه... ليكاتبته.
فكاتبه أنس.

قال داود الظاهري: وما كان عمر يرفع الدره على أنس... لو لم تكن الكتابة واجبة.

ب) وذهب فريق آخر من العلماء: إلى أن الموافقة على طلب العبد، ومكاتبته.. من
باب الإباحة.

دليلهم...

146 - أنظر: السائيس.. تفسير آيات الأحكام(النور.. الآية:33).

أن قوله تعالى (فَكَاتِبُوهُمْ) أمر ورد بعد الحظر.. فهو للإباحة .
وبيان ذلك: أن الكتابة من السيد لعبده.. بيع ماله بماله، وهذا محظور.
فلما ورد الشرع بطلبه.. كان مباحا.

ج) وذهب جمهور العلماء المالكية، والأحناف، والشافعية والحنابلة.. إلى أن موافقة
السيد على طلب العبد، ومكاتبته، من باب الندب والاستحباب.
دليلهم ...

1- أن الله عز وجل قيد المكاتبه بشرط علم الخير فيه، فقال (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ
خَيْرًا) .

حيث علق الوجوب على أمر باطن، وهو: علم السيد بالخيرية، فإذا قال العبد: كاتبني،
وقال السيد: لم أعلم فيك خيراً.. كان القول للسيد.
فدل على عدم وجوبه.

2- ولقوله p: "لا يجل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه" والعبد: مال، فلا يجوز
إلا برضى السيد.

3- الإجماع على أنه.. لو سأل العبد سيده أن يبيعه من غيره، لم يجب عليه ذلك، ولا
يجبر عليه.

فكذلك: الكتابة؛ لأنها معاوضة، ومرجعها إلى رضى الطرفين واختيارهما.
وأجاب الجمهور... بأن ما روي عن عمر رضى الله عنه: لا يدل على الوجوب.
حيث قالوا: إنها لو كانت واجبة.. لحكم بها عمر على أنس، ولم يكن يحتاج أن يخلص عليه
.. ليكاتبته.

كما أنه: لم يكن أنس، أيضا، يمتنع من شيء واجب عليه⁽¹⁴⁷⁾.
وأما تهدد عمر إياه..!!

فإنما كان من كمال شفقتة على رعيته، وحبه الخير لهم.
إذ كثيراً ما كان يأمر الناس بما هو أفضل لهم في الدين، وإنه لم يكن واجباً عليهم، بل
يكون على وجه التأديب والمصلحة⁽¹⁴⁸⁾.
ويدل . كذلك . على أنها ليست واجبة على السيد: أن الأمر فيها موكول إلى غالب
ظنه.. أن في العبد- رجلا كان امرأة - خيراً.
فلما كان المرجع إلى السيد: لم يلزمه الإجماع عليه.
هذا...

والصحيح: ما قاله الجمهور.

الثاني: مَنْ المأمور بالإيتاء في قوله تعالى (وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) ؟
الجواب.

أختلف الفقهاء في ذلك... على النحو التالي:

(أ) قال أكثر العلماء : إن المأمور بالإعطاء.. هو مولى العبد المكاتب ومن هؤلاء الإمام
الشافعي.

(ب) وقال جماعة منهم: إنما هذا أمر متوجه إلى الناس كافة.. أن يعطوا المكاتبين سهمهم
الذي جعله الله لهم من الصدقات المفروضة بقوله تعالى: [**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ
السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**] ⁽¹⁴⁹⁾.
وهذا.. هو مذهب الأحناف.

(ج) وقيل: إنه أمر ندب للمسلمين عامة... بإعانة المكاتبين، بالتصدق عليهم.

(د) وقيل : إنه أمر لموالي العبيد.. أن يقرضوهم شيئاً من أموالهم يستثمرونه في التجارة
إعانة لهم في مال الكتابة.

148 - الجصاص.. أحكام القرآن..(النور.. الآية:33)

149 - التوبة:60

هـ) وقيل: إنه أمر لموالي العبيد.. أن ينفقوا عليهم ويواسوهم، بعد أدائهم وعتقهم؛ تكريماً منهم وتفضلاً^[150].

الثالث: ما حكم هذا الإيتاء..؟

الجواب...

اختلف الفقهاء كذلك... على النحو التالي:

أ) مذهب الأحناف والشافعية، وحكاه ابن العربي عن مالك.. أن ذلك: واجب. دليهم..

أن ظاهر الأمر: ذلك، ولا صارف له.

ب) وقال سفيان الثوري، وطائفة من العلماء: إنه ليس بواجب.. وإن يفعل: فحسن. الرابع: ما مقدار ما يعطي العبد من مال المكاتبه يعتق به نفسه..؟

اختلف العلماء أيضاً.. على النحو التالي:

أ) عن علي بن أبي طالب.. أنه الربع.

وقال ابن راهويه: أجمع أهل التأويل... على أن الربع، هو المراد من الآية.

ب) وعن ابن مسعود والحسن: الثلث.

ج) وعن ابن عمر: السبع.

د) وعن قتادة: العشر.

هـ) وقال الشافعي: لم تُقَدِّر الآية الشيء الذي يؤتبه المولى.

لذلك: يكفي في الخروج من عهدة طلب الإيتاء.. أن يدفع أقل شيء.

ويلاحظ: أنه في حكم الإيتاء سواء بسوء.. حط شيء، أي: إسقاط شيء من مال

الكتابة، التنازل عن أخذه،

بل الحط أولى من الإيتاء.

لأنه: الماثور عن الصحابة.

ولأنه: في تحقيق المقصود من الكتابة.. أقرب من الإيتاء.

ختامًا: ليس المهم كما يقول شهيد الإسلام ، الأستاذ سيد قطب، أن يقال إن الرقيق قد تحرر، وليست العنوانات هي التي تهم الإسلام، إنما تهمه الحقيقة الواقعة.

ولن يتحرر الرقيق حقا: إلا إذا قدر على الكسب بعد عتقه، فلا يصبر كلا- أي: عالة- على الناس، ولا يلجأ إلى وسيلة قدرة، يعيش منها، ويبيع فيها.. ما هو أثن من الحرية الشكلية وأعلى .. خاصة: أن إعتاقه، لتنظيف المجتمع ورقيه، لا لتلوينه من جديد، بما هو أشد وأنكى⁽¹⁵¹⁾.

هذا...

وأخطر من وجود الرقيق في الجماعة احترام بعض الرقيق للبعاء..

وكان أهل الجاهلية .. إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة، يأخذها منها.

وهذا: هو البغاء في صورته التي ما تزال معروفة حتى اليوم!!

فلما أراد الإسلام.. تطهير البيئة الإسلامية: حرم الزنى بصفة عامة.

وخص حالة البغاء بنص خاص⁽¹⁵²⁾ وحكم خاص.

هو ما يلي.

الحكم العاشر: الإكراه على الزنا

يقول تعالى:

151 - أنتهي نظام الرق كله، بمجرد وجود معاهدات عالمية، تحرم استرقاق أسري الحرب، ونظام الرق في الإسلام: كان مفيداً بمبدأ المعاملة بالمثل مع وجود الوسائل الكثيرة، في ذات الوقت للمساعدة على إنهائه.

152 - سيد قطب... في ظلال القرآن (النور.. الآية 33)

[... وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ]

أخرج الإمام مسلم، وأبو داود.. عن جابر رضي الله عنه أن جارية لعبد الله بن أبي بن سلول، يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، وكان يكرهما على الزنى. فشكنا ذلك لرسول الله ﷺ ... فنزلت هذه الآية (153).

وروى جابر بن عبد الله ، وابن عباس رضي الله عنهما.. أن هذه الآية، نزلت في عبد الله بن أبي.. وكانت له جارتان... إحداهما تسمى معاذة، والأخرى: مسيكة، وكان يكرهما على الزنى، ويضربهما عليه؛ ابتغاء الأجر، وكسب الولد. فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية فيه، وفيمن فعل فعله من المنافقين. يقول القرطبي: ومعاذة هذه... أم خولة، التي جادلت النبي ﷺ في زوجها (154). وقيل: كان له ست جوار، أكرههن على البغاء ، وضرب عليهن ضرائب. فشكنا اثنتان منهن .. الخ (155).

وعن علي وابن عباس: أن أهل الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنى، يأخذون أجورهن. فنهوا عن ذلك في الإسلام، ونزلت الآية. يقول الشيخ السائس: وعلى جميع الروايات.. لا سبيل لتخصيص الآية بمن نزلت فيه، بل هي عامة في سائر المكلفين. ومعنى الآية:

[وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ] أي: إماءكم.

[عَلَى الْبِغَاءِ] أي: على الزنى؛ إذ البغاء: هو الزنى للنساء خاصة.

153 - مسلم.. ك التفسير، أبو داود.. ك الطلاق، باب في تعظيم الزنى .

154 - القرطبي.. الجامع لأحكام القرآن(النور.. الآية 33).

155 - السائس.. تفسير آيات الأحكام(النور.. الآية: 33)

[**إِنْ أَرَدْنَا نَحْصِنًا**] أي: تعففا عن الزنى.

ورغبتها هذه: هي تثبت حالة الإكراه.

وإما إذا كانت رغبة في الزنى: لم يتصور إكراه.

ولا يعني هذا: أنه يجوز للرجل إذا لم ترد أمته التحصن.. أن يدفعها إلى الزنى.

كما لا يعني هذا: أن الأمة بالخيار، في أن تتحصن، أو تزني.

إنما كان القيد بهذا الشرط..!

لأن الإكراه: لا يكون إلا مع إرادة التحصن.

حيث إن... أمر المطيعة: لا يسمى مكراها، ولا أمره إكراها.

ولأن الآية.. نزلت على سبب، فوقع النهي على تلك الصفة.

وعلى كل... ففيه: توبيخ لسادة الإمام.

فكانه قال: إذا رغبت في التحصن فأنتم أحق بأن تفرحوا بذلك، وتعينوهن عليه..

فكيف تُكْرهُنَّ..؟

ثم يقول رب العزة.

[**لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**] تريدون بهذا الإكراه على الزنى الحصول على عرض الحياة

الدنيا، الزائل، الخبيث، من أجورهن، وأولادهن، الذين يسترقون؛ فيباعون.

[**وَمَنْ يُكْرِهِنَّ**] علي الزنى، بعد هذا النهي الواضح.

[**فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ**] أي: وهو العليم بسوء فعل المكروه، ووضوح عجز وكراهية

المكروه.

[**عَفُورٌ**] هن، أي للمكراهات.

[**رَحِيمٌ**] بهن.

أو [**عَفُورٌ**] لهم، وبهم - أي المكروهين - إذا تابوا، وندموا وأقلعوا عن هذا العمل.

هذا...

ولنا بعض الوقفات السريعة، على النحو التالي:

(الوقفة الأولى) في البغاء.

كل أهل الجاهلية الأولى: إذا كان لأحدهم أمة.. أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة، يأخذها منها، كل وقت.

فلما جاء الإسلام: نهي الله المؤمنين عن ذلك، وبرأ ساحتهم من هذا الفعل القبيح. وكان هذا البغاء الجاهلي.. على نوعين⁽¹⁵⁶⁾.

الأول: البغاء في صورة النكاح.

الثاني: البغاء العام في الإماء والحرائر.

أما الأول:

فكانت تحترفه بعض الإماء اللواتي لم يكن لهن من يكفلهن، أو الحرائر اللواتي لم يكن لهم بيت أو أسرة تضمهن، فكانت إحداهن تجلس في بيت، وتتفق في آن واحد مع عدة رجال، على أن ينفقوا عليها ويقوموا بأمرها ويقضوا منها حاجتهم.. فإذا حملت ووضعت: أرسلت إليهم حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبت باسمه.. فيلتحق نسبه به.

فهذا نوع من البغاء كان يتناكح به أهل الجاهلية وهو البغاء في صورة النكاح.

وأما البغاء العام: فكان معظمه بواسطة الإماء وربما وقع من بعض الحرائر أيضاً وهو أيضاً على وجهين.

الأول: أن بعض السادة كانوا يفرضون على إمائهم، مبلغاً كبيراً من المال يتقاضونه منهن في كل شهر، فكن يكسبن بالفجور، لأنه لا يمكنهن أن يدفعن ما فرضه عليهن سادتهن بحرفة طاهرة فكن يحترفن البغاء.

والوجه الثاني: أن بعض العرب كانوا يجلسون الفتيات الشابات من إمائهن في الغرفات وينصبون على أبوابهن رايات، تكون علماً لمن أراد أن يقضي منهن حاجته، وكانت بيوتهن تسمى "المواخير" وكانوا يستدرون من ورائهن المال فإذا أبت إحداهن أو تعففت عن ممارسة هذه الرذيلة ضربها سيدها وأكرهها على مزاوله الحرفة حتى لا ينقطع عنه ذلك المورد الخبيث الذي كان يُكسبه المال الوفير.

وهذا (عبد الله بن أبي) رأس النفاق كان له ست إماء شابات جميلات يكرههن على البغاء، طلبا لكسبهن، وفيه نزلت الآيات الكريمة المتقدمة.

أقول: ما أشبه جاهلية (القرن العشرين) في زماننا بتلك الجاهلية الأولى حيث تنظيم بيوت الدعارة تحت حماية القانون، وتحميها الشرطة ويقصدها الراغبون بأجر معلوم، وليس فيها ما يختلف عن الأولى إلا أنها (أشنع وأفظع) لأنها في (الحرائر) وبشكل فاضح مكشوف، وقد قال p " (ما ظهرت الفاحشة في قوم فعملوا بها إلا أصيبوا بالأمراض والأوجاع: التي لم تكن في أسلافهم) وهذا من أعلام النبوة. وإن لله وإنا إليه راجعون.

(الوقفة الثانية) قد يقال (157) : إن النهي عن الإكراه هنا.. مقيد بأمرين:
الأول: أنهم يردن التحصن.

الثاني: أنهم يبتغون عرض الحياة الدنيا.

وعلى هذا.. فيلزم القائلين بالمفهوم: أن الإكراه على الزنى جائز إذا لم يردن التحصن، أو لم يقصد السادة به عرض الحياة الدنيا.
مع أن: الإكراه على الزنى.. غير جائز، بحال من الأحوال!
والجواب

أن الشرط (إن أردن تحصنا) ... لم يقصد به: تخصيص النهي بحالة ووجوده، وإخراج ما عداها من حكمه.

بل.. قصد به: النص على عادة من نزلت فيهم الآية؛ حيث كانوا يكرهونهن على البغاء، وهن يردن التعفف عنه.

ومعلوم: أنه لا يعمل بمفهوم القيد... إلا حيث لا يكون له فائدة غير المفهوم.

لكن!! إذا ظهر له فائدة.. غير المفهوم : فلا اعتبار بمفهومه.

وهنا: قد ظهر لهذا الشرط فائدة.

وهي: أن في التنصيص على تعفف الإمام.. توبيخا لساداتهم، وتقبيحا لحالهم، حيث لم يبلغوا في محاسن الآداب، والترفع عن الدنيا.. مبلغ الفتيات المبتذلات، مع وفور شهوتهن، ونقصان عقلهن، وقصور باعهن في معرفة محاسن الأمور. وكذلك...

قوله تعالى: [**لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**]

يعني: لم يقصد بهذا الشرط أيضا.. التنصيص على هذه الحالة، لإخراج ما عداها من الحكم.

وإنما... جيء به ليسجل عليهم عادة، كانت تجري فيما بينهم أيضا؛ زيادة في التشنيع عليهم، وتقبيحا لما كانوا عليه من احتمال الوزر الكبير لأجل النزر الحقيقير.

(الوقفه الثالثة) ما الإكراه.. الذي يسقط الحد هنا..؟

الجواب: الإكراه... يقال في حمل الإنسان على ما يكرهه.

والإكراه يحصل: متى وجد التخويف الذي يقتضي.. تلف النفس، كالتهدد بالقتل.. أو: تلف عضو من الأعضاء.

وأما اليسير من الخوف فلا يصير به إكراه.

وحال الإكراه على الزنى: كحال الإكراه على كلمة الكفر.

إذا يقول تعالى: [**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**] (158).

(الوقفه الرابعة) ما حكم من أكرهه على الزنى من الرجال؟ هل يقام على الحد؟

أو يرتفع عنه كما يرتفع عن المرأة المكرهه؟

الجواب.

أ) ذهب الجمهور: إلى أن الإكراه... يرفع الحد عن الرجل، كما يرفعه عن المرأة.

كما أنه يرفع الإثم عنهما.. كذلك.

دليلهم...

الآية الكريمة: [**إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**] وحكم الرجل في ذلك: كحكم المرأة سواء بسواء.

وللحديث الشريف " رفع عن أمي: الخطأ ، والنسيان، وما استكروها عليه".

ب) وذهب أبو حنيفة: إلى أن الرجل إذا أكره على الزنى، وفعل.. فإنه يجد إلا إذا أكرهه سلطان... فلا يجد، مثل المرأة المكرهه. دليلاً...

أن الإكراه: ينافي الرضى.

وكلما وقع عن طوع ورضى : فغير مكره عليه.

ومعلوم: أن حال الإكراه.. هي حال خوف ، وتلف على النفس، تنعدم معها الشهوة.

ومعلوم أيضاً: أن الانتشار والشهوة متى وجد: ينافيها الخوف والوجل. وعلى هذا...

فلما وجد منه الانتشار والشهوة، في هذه الحال، علم أنه فعل، أي الزنى، غير مكره. لأنه لو كان مكرهاً، خائفاً: لما كان منه انتشار، ولا غلبته الشهوة. وفي ذلك: دليل على أن فعله ذلك.. لم يقع على وجه الإكراه. فوجب الحد.

(الوقفه الخامسة) ختام.

يقول شهيد الإسلام (سيد قطب) عليه رحمة الله ورضوانه في تفسيره الظلال ما نصه (159).

وهذا النهي عن إكراه الفتيات على البغاء-وهن يردن العفة- ابتغاء المال الرخيص كان جزءاً من خطة القرآن في تطهير البيئة الإسلامية وإغلاق السبل القادرة للتصريف

الجنسي، وذلك أن وجود البغاء يغري الكثيرين لسهولته ولو لم يجذوه لا نصرفوا إلى طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف.

ولا عبرة بما يقال: من أن "البغاء" صمام آمن يحمي البيوت الشريفة لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج، أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراس إن لم تجد هذا الكلاً المباح.

إن في التفكير على هذا النحو قلباً للأسباب، فالميل الجنسي يجب أن يظل نظيفاً، بريئاً، موجهاً إلى إمداد الحياة بالأجيال الجديدة، وعلى الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية بحيث يكون كل فرد فيها في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة بالزواج. فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت هذه الحالات علاجاً خاصاً، وبذلك لا نحتاج إلى (البغاء) وإلى إقامة (مقادر إنسانية) يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس فيلقي فيها بالفضلات تحت سمع الجماعة وبصرها.

إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تُعالج بحيث لا تخرج مثل هذا النتين، ولا يكون فسادها حجة على ضرورة وجود (المقادر العامة) في صورة آدمية ذليلة.. وهذا ما يصنعه الإسلام بنظامه المتكامل، النظيف، العفيف، الذي يصل الأرض بالسماء ويرفع البشرية إلى الأفق المشرق الوضيء المستمد من نور الله".

تعقيب .. على القسم الأول من السورة

يقول سبحانه:

[**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**]

في هذه الآية الكريمة: يعدد الله تعالى على المؤمنين نعمه، فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات، وفيما ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم؛ ليقع التحفظ، مما وقع فيه هؤلاء.

ومعنى الآية: [**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ**] أي: لقد أنزلنا إليكم القرآن فيه: آيات، واضحات مفسرات.

ومن الآيات الواضحات آيات هذه السورة، التي أجمع فيها من الإعجاز الكثير،
والتي تبين لكم.. ما بكم الحاجة إلى بيانه، من : الأحكام، والحدود الشرائع.
[وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ] أي: وأنزلنا لكم فيها مثلاً.. أي: خبراً عن الأمم
الماضية، وقصة عجيبة.. تبين ما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى:
[وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ] أي: ينتفع بها المتقون، لأنهم هم الذين ينتفعون بها، وإن كانت،
في ذات الوقت، موعظة للجميع.

نعم...

ما تقدم من أول السورة إلى هنا: يشتمل على آيات.. ذكر فيها: الحدود، والأحكام
الشرعية، وقصة الإفك العجيبة ، المشابهة لقصة يوسف عليه السلام، وقصة مريم
عليها السلام، حيث اتهما بما اتهمت به عائشة رضي الله عنها، من الإفك.. فبرأها
الله.

واشتملت كذلك: على مواعظ ، وزواجر.

وعلى هذا.. فقد وضع من هذه الآية: أن في القرآن - ومنه هذه السورة-
معجزات، ودلالات واضحة... تدل على الله وعلى أن فيه قصصاً وعبراً، وأن فيه
موعظة وتذكيراً.

فمن لم ير: ما في هذه الآيات من دلالات!!

ومن لم يعتبر: بما قصة الله علينا!!

ومن لم يتذكر ويتعظ : بما في القرآن، وما في هذه السورة..!!

فإن : يكون بينه وبين الله حجاب.

نعوذ بالله تعالى من ذلك.

القسم الثاني
[أنوار .. وإيمانيات]
(من الآية 35 حتى نهاية الآية 46)

- ربط وتمهيد
- الله نور السموات والأرض
- رجال في بيوت الله
- المحرومون
- دعوة للإيمان
- دعوة أخرى
- ودعوة ثالثة
- تعقيب

ربط وتمهيد

بما تقدم من السورة : عالج القرآن، كما يقول صاحب الظلال⁽¹⁶⁰⁾، أغلظ ما في الكيان البشري، ليرفقه، ويطهره، ويرتفع به إلى آفاق النور.

عالج: عرامة اللحم والدم، وشهوة العين والفرج ورغبة التجريح والتشهير، ودفعة الغضب والغيظ.

وعالج الفاحشة: أن تشيع في النفس، وأن تشيع في الحياة، وأن تشيع في القول.

عالجها: بتشديد حد الزنا، وحد القذف.

وعالجها: بعرض نموذج شنيع فظيع، من رمي المحصنات المؤمنات الغافلات.

وعالجها: بالوسائل الواقية .. بالاستئذان على البيوت، وغض البصر، وإخفاء الزينة، والنهي عن مثيرات الفتنة، وموقفات الشهوة، ثم .. بالإحصان، ومنع البغاء، وتحرير الرقيق.

كل أولئك .. ليأخذ الطريق على دفعات اللحم والدم، ويهيئ للنفوس وسائل العفة، والاستعلاء والشفافية، والإشراق.

وفي أعقاب حديث الإفك ..

160 - في ظلال القرآن... (النور.. الآية 35)

عاج: ما تخلف عنه.. من غضب وغيظ، ومن اضطراب في المقاييس، وقلق في النفوس.
فإذا نفس محمد p.. قريبة، راضية.

وإذا نفس أبي بكر رضي الله عنه... سمحة، صافية.

وإذا نفس صفوان بن المعطل رضي الله عنه... قانعة بشهادة الله، وتبرئته.

وإذا نفوس المؤمنين.. آيبة، تائبة، وقد تكشفت لها ما كانت تتخبط فيه من التيه: فثابت
إلى ربها، شاكرة فضله ورحمته، وهدايته.

بهذا التعليم وهذا التهذيب، وهذا التوجيه: عاج الكيان البشري.. حتى أشرق بالنور،

وتطلع إلى الأفق الوضيء واستشرق النور الكبير، في آفاق السماوات والأرض، وهو

على استعداد لتلقي الفيض الشامل، الغامر في عالم كله إشراق، وكله نور.

الله نور السموات والأرض

يقول تعالى:

[**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]**

النور في كلام العرب: الأضواء المدركة بالبصر.

وقد استعمل مجازاً: فيما صح من المعاني ولاح.

فيقال: كلام له نور، ومنه: الكتاب المنير.

ولذا.. يجوز أن يقال: لله تعالى نور، من جهة المدح؛ لأنه أوجد الأشياء .

وأن يقال: نور جميع الأشياء.. منه ابتداءؤها، وعنه صدورها.

وهو سبحانه: ليس من الأضواء المدركة، جل وتعالى، عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية..

(أ) فقيل: المعني... أي به وبقدرته أنارت أضواء السموات والأرض، واستقامت

أمورها، وقامت مصنوعاتها.

وهذا الكلام علي التقريب للذهن.
كما يقال: الملك نور أهل البلد... أي به قوام أمرها، وصلاح جملتها، لجران أمره
على سنن السداد.
فهو في الملك: مجاز
وهو في صفة الله تعالى: حقيقة محضة؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقل
نورًا هاديًا .. لأن ظهور الموجود به حصل، كما حصل بالضوء ظهور المبصرات.
تبارك الله تعالى: لا رب غيره.
قال هذا : مجاهد ، والزهري، وغيرهما.
ب) وقال ابن عرفة: أي منور السموات والأرض.

ت) وقال أبي بن كعب والحسن، وأبو العالية: مزين السموات بالشمس، والقمر،
والنجوم.. ومزين الأرض بالأنبياء، والعلماء والمؤمنين.

ث) وقال ابن عباس وأنس: المعني... الله هادي أهل السموات والأرض (161).
وكلها . كما نلاحظ . متقاربة .
وعلى ذلك: فلا هدى ... إلا بهداه سبحانه.
وكل نوع من أنواع الهدى: فإنما هو به ومنه تبارك وتعالى.
وبعد أن قرر الله عز وجل هذه القاعدة الكلية: وهي أنه الهادي لكل شيء.. ضرب
مثلا لنوع من هداه.
وهو: هداه الخاص لقلوب عباده المؤمنين.
فقال:

[مَثَلُ نُورِهِ] أي: مثل هداه.

وإذن: فبعد أن قرر أنه نور السموات والأرض..بدأ بضرب مثل نعرف منه معني كونه نور السموات والأرض وهاديها.

هذا المثل: يتضمن الكلام عن الهدى في قلب المؤمن.

فمن عرف هداية الله لقلوب عباده المؤمنين : يدرك أنه الله هادي السموات والأرض(162).

ويقول القرطبي : (مثل نوره) أي صفة دلائله ، التي يقذفها في قلب المؤمن . والدلائل : تسمى نوراً.

وقد سمى الله تعالى كتابه نوراً، فقال: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا] (163)، وسمى نبيه ﷺ نوراً، فقال: [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ] (164)، وهذا: لأن الكتاب يهدى ويبين ، وكذلك الرسول.

[كَمِشْكَاةٍ] المشكاة..هي الكوة غير النافذة في الحائط، وهي أجمع للضوء وأصلها: وعاء يجعل فيه الشيء.

[فِيهَا مِصْبَاحٌ] أي: سراج، منير، ضخم، ثاقب.

[الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ] أي: في قنديل من زجاج صاف.

وعلى هذا : فالمصباح في زجاجة، وهما معا في هذه المشكاة، وبهذا الشكل: فالمصباح فيها..أكثر إنارة منه في غيره.

[الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ] أي: أن الزجاجة التي في المشكاة، والتي فيها

المصباح..مضيئة ضوءاً باهراً، كأنها كوكب من در، أي من لؤلؤ عظيم كبير.

[يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ] أي: هذا المصباح يستمد وقوده من شجرة زيتون.

وهي شجرة مباركة، كثير منافعها.

162 -سعيد حوى..الأساس في التفسير(النور..الآية 35).

163 - النساء: 174:

164 - المائدة: 15:

كما أنها.. أول نبتة في الدنيا وأول شجرة نبتت بعد الطوفان، وتنتبت في منازل الأنبياء والأرض المقدسة، ودعا لها سبعون نبيا بالبركة، منهم إبراهيم عليه السلام، ومنهم محمد ρ (165).

[**لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ**] أي : هي في مكان وسط، تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها صافيا معتدلا مشرقا...

[**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ**] من صفائه ونقاؤه.

[**وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**] أي: لتألهه... يكاد يضيء من غير نار، وذلك: مبالغة في حسنه وصفائه وجودته.

قال ابن عباس (166) هذا مثل نور الله وهده في قلب المؤمن، ما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإن مسته النار: زاد ضوؤه.

كذلك قلب المؤمن: يكاد يعمل بالهدى، قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم زاده هدى على هدى، ونورا على نور، كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة [**هَذَا رَبِّي**] (167)، من قبل أن يخبره أحد أن له ربا، فلما أخبره الله: أنه ربه، زاد هدى فـ [**قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسَلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**] (168).

[**نُورٌ عَلَى نُورٍ**] أي: هذا النور الذي شبه به الحق سبحانه.. نور متضاعف.

حيث اجتمع في المشكاة.. ضوء الصباح، إلى ضوء الزجاجة، إلى ضوء الزيت فصار كأنور ما يكون.

فكذلك : براهين الله تعالى، واضحة.

وهي: برهان بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه.

كإرساله الرسل، وإنزاله الكتب، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل مُعْتَبِر.

165 - القرطبي.. الجامع لأحكام القرآن (النور.. الآية 35).

166 - نفس المصدر.

167 - الأنعام: 76-78

168 - البقرة: 131

ثم- بعد ذلك - ذكر الله تعالى: هداة لنوره من شاء وأسعد من عباده، فقال: [يَهْدِي
اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ] أي: يوفق الله لإصابة الحق، من يشاء من عباده.. إما بالهام من
الله، أو ينظر في الدليل.

ثم ذكر: تفضله على العباد، في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر.. المؤدي إلى
الإيمان فقال: [وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ] تقريبا لأفهامهم، ليعتبروا فيؤمنوا
[وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] أي: فهو أعلم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الإضلال.
وبعد...

فيقول الأستاذ سعيد حوى كلا ما نفيسا، في هذا المقام، ننقله حرفيا.. يقول رحمه الله:
والآن: وقد عرفنا المعنى الحرفي للكلمات .. فلنر المراد منها.

أما المشكاة: فإنها المؤمن.

وأما الزجاجاة: فإنها قلبه.

وأما المصباح: فإنه نور قلبه ، وفطرته.

وأما الزيت: فهو عمله بالشرعية.

وأما الزيتونة: فإنها الشريعة، لا شرقية ولا غربية.

وأما النور: فإنه نور الفطرة، ونور الشريعة.

فإذا اجتمع لإنسان : نور الفطرة، ونور الشريعة.. فكيف يكون هداة.

إنه يكون على غاية من الهدى في كل ما يفعل ويذر، فهذا نموذج على هدى الله الذي
هدى به السماوات والأرض فالله عز وجل ضرب مثلا لهداية السموات والأرض بحال
المؤمن المهتدي بنو الشريعة والنص في سياقه يفيد أن الله عز وجل إذا هدى أحدا بهداه
الخاص فإنه بذلك يكون منسجما مع نظام الكون كله.

إن هذه الآية لا يفهمها إلا من اجتمع له علم وسلوك إلى الله أمثال هؤلاء هم الذين
يدركون المعنى الحقيقي للآية

ولتوضيح هذا المقام نذكر الحديث الذي ذكره ابن كثير عند هذه الآية، والذي رواه
الإمام احمد وقال عنه ابن كثير إسناده جيد ولم يخرجوه.

أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزدهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس مصفح، فأما القلب الأجرد: فقلب المؤمن، سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف، فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس: فقلب المنافق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة، يمدّها الدم والقيح فأبي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه".

إن هذا الحديث يعتبر أساساً في فهم موضوع القلب والسلوك.

فالقلب المذكور في الآية هو القلب الأجرد الذي فيه مثل السراج يزهر، هذا القلب يحتاج إلى مدد دائم بالعمل بالشريعة فذلك زيت ووقوده، والقلب المصفح قلب يحتاج إلى جهد مضاعف، كي يتخلص من رواسبه ونفاقه ليصل صاحبه إلى القلب الأول، وقد يحتاج إلى طبيب يعرف كيف يداويه، وأما القلب المنكوس والقلب الأغلف فهذان انتهى أمرهما، ولم يعد منهما خير، أو فيهما أمل.

أنه ما لم يكن في القلب شيء من نور الفطرة، فإن الإنسان يكاد يكون ميؤساً منه، ولكون هذا غيباً فإن علينا أن ندعو، والإحساس بهذه المعاني - كما قلنا من قبل - لا يدركها إلا من اجتمع له علم وسلوك، وسير قلبي إلى الله (169).

رجال في بيوت الله

يقول الإمام ابن كثير: لما ضرب الله تعالى، مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم.. بالمصباح في الزجاج الصافية، المتوقد من زيت طيب، وذلك: كالقنديل مثلاً.. ذكر محلها: "وهي المساجد.. التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته، التي يُعبد فيها ويُوحد (170).

فقال عز وجل:

[فِي بُيُوتِ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36)
رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا
تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيََهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَبِزَيْدِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ
وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ]

وعلى هذا: فكأن الله عز وجل أفهمنا أن مظنة وجود هذا النوع من الناس، الذين وصف الله قلوبهم بما وصف: هي المساجد، التي أمر الله أن تعظم، بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو، والأقوال والأفعال، التي لا تليق فيها، وأن يذكر فيها اسمه في الصلاة، وحلقات العلم والذكر، وقراءة القرآن.. وأمثال ذلك.

ومن ثم : ورد في الحديث "إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد.. فاشهدوا له بالإيمان⁽¹⁷¹⁾ .

ومعنى الآية ... [مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الرَّجَاةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ] .

[فِي بُيُوتِ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ] أي: أمر الله، أن تبني أو تعظم.. بحيث لا يذكر فيها الفاحشة من القول، كما تطهر عن النجاسات والأقذار.

[وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ] بالصلاة والذكر، والعلم، وقراءة القرآن وهي: المساجد.

ومعنى هذا: أن القلوب المؤمنة، توقد من شريعة الله، في بيوت أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه .

وهذا يفيد : أن مدد الإيمان .. مظنته المساجد.

ومن ثم: فعلى العلماء.. أن يقيموا حلقات العلم، وجلسات القرآن في المساجد من أجل أن يوقدوا مصباح الإنسان، وهو قلبه.

170 - تفسير القرآن العظيم..(النور.. الآية 36)

171 - رواه الترمذي..ك التفسير باب " ومن سورة التوبة " وابن ماجه ..ك المساجد، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة.

والمساجد: لها الدور الأول على كل حال، في إيجاد الإيمان، وتربية المؤمن وهذا: يجعل مسئوليتنا كبيرة في عمارة المساجد⁽¹⁷²⁾.

ثم .. يصف ربنا عز وجل هؤلاء الرجال : بصفات ثلاث...
(الأولى) أنهم يسبحون الله فيها بالغدو والآصال.

حيث يقول: [**يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ**] قال أهل التفسير: أراد بالتسبيح في الغدو والآصال... الصلاة المفروضة، فالتى تؤدي بالغداة : صلاة الفجر، والتي تؤدي بالآصال: صلاة الظهر والعصر والعشائين؛ لأن أسم الأصيل.. يقع على هذا الوقت كله⁽¹⁷³⁾.

ويقول ابن كثير⁽¹⁷⁴⁾: فقولهُ (رجال) فيه (إشعار.. بهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عمارا للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى [**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**]⁽¹⁷⁵⁾.

وهؤلاء : هم الذين تعلقت قلوبهم بالمساجد وتطهرت أرواحهم وزكت نفوسهم من المساجد.

وهم الذين صاروا بسبب ذلك من السبعة الذين يظلمهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما في الحديث النبوي الشريف "...ورجل قلبه معلق بالمسجد"⁽¹⁷⁶⁾.

وهم الذين -من أثر ذلك -صلحت بهم البلاد وسعدت بهم العباد، خيرهم عميم وشهرهم عديم.. وليس هذا عليهم بغريب: فقد نشأوا في بيوت الله، وتربوا على تعاليم وآداب كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ .

(الثانية) أنهم لا تشغلهم الدنيا بزخارفها، عن طاعة الله وحسن عبادته، والاستعداد للقاءه.

172 - أنظر: سعيد الحوى.. الأساس (النور.. الآية 36).

173 - الجمل.. الفتوحات الإلهية.. (النور.. 36).

174 - التفسير القرآن العظيم... (النور 36)

175 - الأحزاب: 23.

176 - متفق عليه.

ولذلك [لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة]

أي: لا تشغلهم تجارة في سفر، ولا بيع في حضر، عن ذكر الله بالقلب واللسان وطلب رضاه في البيع والشراء، كما لا يشغلهم ذلك عن إقامة الصلاة والمحافظة على أدائها تامة كاملة، ولا تشغلهم كذلك: عن أداء الزكاة، ودفعها كاملة لمستحقيها من أصحاب مصارفها الشرعية، فلا يعيقهم عن أدائها بخل أو شح أو إهمال.

فهم بذلك: يؤدون لله حقه، وللمجتمع المسلم حقه، أفرادًا وجماعة.

ولهذا: فهم إيجابيون في مجتمعهم، نافعون لإخوانهم، غير منعزلين عن الناس، ولا منطوين على أنفسهم، بل يهتمون بأمور المسلمين يعايشون واقعهم، ويساهمون في تطهيره، وإعلاء قيمه.

(الثالثة) أنهم لا يغترون بعبادتهم ولا بتجاراتهم عن طلب مرضاة الله.

ولذلك تراهم دائما [يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ] .

أي: يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة الفزع وعظمة الأحوال.

كما قال تعالى: [وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ] (177).

وقال أيضا: [إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ] (178).

نعم...

تتقلب القلوب من هول ذلك اليوم... فتخشى الهلاك، وتطمع في النجاة وتتقلب الأبصار من هول ذلك اليوم... فلا تعرف من أي ناحية يؤخذ بهم، أمن ذات اليمين، أم من ذات الشمال..؟ ومن أين يؤتون كتبهم.. أمن قبل اليمين، أم من قبل الشمال.

واعلم أيها القارئ الكريم، أن الخوف سوط الله الذي يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب منه تبارك وتعالى.

وفائدته: الحذر ، والورع، والتقوى، والمجاهدة، والعبادة ، والفكر، والذكر، وسائر الأسباب الموصلة إلى مرضاة الله تعالى (179).

هذا...

وهؤلاء الرجال

يسبحون الله [فِي بُيُوتِ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَبُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ] .

وكذلك [رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ]

وثالثنا [يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ] !!..

كل ذلك !!..

[لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا] أي: يفعلون ما يفعلون..

ليقبل الله منهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويكافئهم على الإحسان إحسانا.

أيضا..

[وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ] أي: فلا يقتصر في إعطائهم على جزاء أعمالهم، بل يزيدهم من العطايا ما يليق بفضله تعالى.

كما قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا] (180).

وفي الحديث الشريف: " أعددت لعبادي الصالحين: مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" (181).

وهنا..

يقول تعالى: [وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ]

179 - الغزالي..الإحياء..(ربع المنجيات الرجاء والخوف)

180 - النساء:40

181 - رواه : أحمد..في المسند، والدرامي.زفي سنته، ك الرقائق، باب من يدخل الجنة..الخ.

ويلاحظ: أن الله تعالى، لم يقل [**وَاللَّهُ يَرْزُقُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**] مع أن الكلام عنهم، وعن جزائهم.

ولكنه قال [**يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ**] للتنبيه: على أن الرزق المذكور يكون منه تعالى لمن يشاء بمحض مشيئته واختياره عز وجل، وليس بسبب أعمالهم المحكية عنهم. وفي ذلك: إشارة واضحة وتنبيه جلي.. إلى كمال قدرته وكمال جوده، سبحانه وسعة إحسانه.

فكأنه تعالى: لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة، وهم في ذلك: في نهاية الخوف.. بين عز وجل: أنه يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ويزيدهم الفضل، الذي لا حد له، في مقابلة خوفهم.

المحرومون

وبعد أن تحدث المولى عز وجل عن أهل الله، الذين هم.. عمار بيوته، يسبحونه آناء الليل وآطراف النهار، وفي كل حين وآن، ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهم مع كل هذا: يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار..!!

وبعد أن بين تبارك وتعالى: جزاءهم الحسن، وفضله العميم عليهم...!! يذكر عز وجل: المحرومين من كل هذا.

فيقول:

[**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَجْسَبُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ]**

وهذان مثلان: ضربهما الله تعالى، لنوعي الكفار.

فأما الأول: فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على صواب في الأعمال والاعتقادات، وهم ليسوا كذلك.

فمثلهم في ذلك كالسرّاب، الذي يرى في القيعان من الأرض عن بعد، كأنه ماء جار يترقرق.

وأما الثاني: فهو للكفار أصحاب الجهل المركب، المقلدون لأئمة الكفر، الصمّ البكم، الذين لا يعقلون.

فمثلهم ، في ذلك كظلمات في بحر عميق.. الخ.

ومعنى الآيات

[**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ**] أي: وأعمال الذين كفروا، كهذين المثلين:

المثل الأول:

[**كَسْرَابٍ**] أي: ما يرى من ضوء الشمس وقت الظهيرة، في الصحراء، على وجه

الأرض، كأنه ماء جار يترقرق.

[**بِقِيَعَةٍ**] جمع قاع، وهو المكان المنبسط المستوي، من الأرض

[**يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً**] أي: يظنه العطشان ماء.

[**حَتَّى إِذَا جَاءَهُ**] ليشرب منه ويرتوي من عطشه.

[**لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**] مما كان يظن ويتوهم.

وهذا : مثال لما يعمله من لا يعتقد الإيمان ، ولا يتبع الحق، من الأعمال الصالحة، التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه، ثم يخيب - في النهاية - أمله، ويلقي خلاف ما قدر، إذ يرى السرّاب يوم القيامة في الساهرة وقد غلبه العطش، فيحسبه ماء، فيأتيه، فلا يجد ما توهم ورجى.

[**وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ**] أي: يجد زبانية الله عنده، يأخذونه، فيلقونه في جهنم،

فيسقونه الحميمم والغساق (182).

[**وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**] أي لا يشغله حساب عن حساب، وحسابه آت، وكل آتى قريب،

وفي هذا من التهديد والوعيد: ما فيه.

وصدق الله إذ يقول: [قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا] (183).

يقول الأستاذ سعيد الحوى : من هذا نفهم.. أن هذا المثل، هو في نوع من الكافرين، رفضوا الإسلام ويظنون أنهم على شيء كحال اليهود، والنصارى بعد بعثة محمد p (184).

المثال الثاني:

[أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ] أي: عميق.

حيث إن الكافر.. في ظلمات كثيرة : فأحواله.. مظلمة المصدر، مظلمة الهدف، مظلمة التركيب، مظلمة النتيجة، مظلمة الطبيعة.

[يَغْشَاهُ مَوْجٌ] أي: يغطي هذا البحر العميق موج، يعني: يعلوا ويغطي من فيه.

[مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ] أي : من فوق هذا الموج.. موج آخر.. وفي ذلك: إشارة إلى نوعين من الأمواج.

وقد اكتشف علماء البحار: أن هناك نوعين من الأمواج، في بعض البحار العميقة: النوع الأول: الأمواج الظاهرية المعروفة.

النوع الثاني: أمواج باطنية، اشد وأعتى من الأمواج الظاهرية.

وهي: قضية لم يعرفها الإنسان إلا في بداية القرن العشرين الميلادي.

فإن يذكر الله عز وجل هذا المعنى في القرآن: فذلك من أكبر الأدلة على أن منزل هذا القرآن ، هو المحيط علما بكل شيء، والقادر حقا على كل شيء (185).

[مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ] أي: من فوق الموج الأعلى الظاهر، سحب.

[ظُلُمَاتٌ] متعددة.. فهي: ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر.

[بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ] أي: ظلمة السحاب، على ظلمة البحر، وظلمة البحر على ظلمة الموج، وظلمة الموج على ظلمة الموج الباطني.

183 - الكهف: 103- 104

184 - الأساس..النور: 39

185 - سعيد حوى...الأساس..(النور..الآية :40)

[إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأْيًا] أي: من شدة هذه الظلمات إذا أخرج من فيها يده.. بينه وبين رؤيتها بون شاسع.

وهذا مثال: لنوع من الكافرين.. أعمالهم باطلة؛ خلوها عن نور الحق، ولأنها ليست من أمر الله وهديه، فليس مراداً بها وجهه، ولا مرغوا بها إليه.

ومن هذا المثل نفهم: أن هؤلاء يشبهون الملاحدة.. فأعمالهم ليست من وحي الله وشرعه، فلا يؤمنون بحساب وعقاب ومن ثم لا يريدون بعملهم وجه الله.

وهؤلاء : في ظلمات لا يقاربون فيها رؤية الحق، فضلاً عن أن يروه وهكذا [مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا] يهديه به.

[فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ] أي: ليس له هداية بأي حال من الأحوال. وقد دل هذا: على أن وحي الله وحده، هو النور وهو الهدى.

كما دل على أن الكافر: قلبه ظلام، وعمله ظلام، ونتائج عمله ظلام. إذ.. ليس له نور داخلي في قلبه يهتدي به.

كما أنه.. ليس له نور خارجي يهتدي به. وهؤلاء : هم المحرومون حقاً.

فإن من حرم نور الله، وهداية الله: فهو المحروم الحقيقي.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ: فمن أصاب من نوره.. فقد اهتدى، ومن أخطأ.. ضل (186).

فلذلك.. أقول: جف القلم على علم الله عز وجل.

ويقول الأستاذ سعيد: إن هذا الحديث يدل على.. أن الله تعالى علم أزلاً، من سيضل؛ فأراد له.

ومن علم الله منه الهداية: أعطاه نوراً، فبهذا النور اهتدى، فأمن وأسلم.

وأما الكافر: فإنه مظلم القلب.. ومن ثم لا يرى، ولا يهتدي، وليس له حجة.

إذ.. العلم كاشف، لا مُجِبِر (187).

دعوة للإيمان

وبعد أن تحدث المولى عز وجل:

عن السعداء المهتدين بنوره، وهديه، وشرعه الذين تعلقت قلوبهم في بيوت الله.. يسبحونه بالغدو والآصال، فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهم: في ذات الوقت يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، حتى صارت قلوبهم في نور على نور..؟

وعن الأشقياء، الذين حرموا أنفسهم من هذه الهداية، وصاروا يتخبطون في الظلمات، بسبب عنادهم وكفرهم وبعدهم عن ساحات رضوان الله، وفضله حتى صارت قلوبهم في ظلمات فوق ظلمات..

أخذ يوجه الأنظار ويلفت البصائر.. إلى آيات الله ودلائل التوحيد في الخلق؛ دعوة للاهتداء، وحثا على الإيمان، حيث إن مصنوعاته تدل بتغييرها على أن لها صانعا، قادرا على الكمال.

فقال:

[أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ]

والمعنى:

[أَلَمْ تَرَ] أي: ألم تعلم علم اليقين أيها الإنسان.

[أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] من الملائكة والأناسي، والجان، والحيوان، حتى الجماد..

وذلك: كما في قوله تعالى: [تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا] (188).

وهذا الاستفهام للتقرير، والإخبار، وإلزام الحجة.
[**وَالطَّيْرُ**] كذلك تسبحة، [**صَوَّاتٍ**] لأجنتها في الهواء.
[**كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**] كل من في السموات والأرض وما فيهما، قد علم الله
صلاته وتسبيحه.

وقال مجاهد وغيره: الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق.
وقال سفيان: للطير صلاة، ليس فيها ركوع ولا سجود.
وقيل: إن ضربها بأجنتها صلاة، وإن أصواتها تسبيح.
وقيل: التسبيح ها هنا.. ما يرى في المخلوق من أثر الصنع.
وعلى كل: فقد أرشد الله كل مخلوقاته إلى طرائق تسبيحه لله عز وجل، وعبادته له.
ولذلك يقول:

[**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**] أي: لا يخفى عليه طاعتهم وتسبيحهم.
وفي هذا إشارة إلى وعده ووعيده.
وعده للطائعين من عباده، المهتدين بهداه، العاملين بشرعه: أنه عليهم بهم وبما يفعلونه؛
فيجاز بهم عليه بالحسنى وزيادة.
ووعيده للعاصين من عباده كذلك الضالين عن هديه، المعاندين لشرعه: أنه عليهم بهم
وبما يفعلونه، فيجازيهم عليه سوءًا وخزيانا.
وهو في الوقت ذاته.
دعوة لمزيد الطاعة من أوليائه، ولمراجعة النفس والدخول في حظيرة الإيمان للبعيد عن
آياته.

ولتأكيد هذا...

يخبر تعالى: أن له ملك السموات والأرض حيث يقول:
[**وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**] أي: هو الحاكم، المتصرف، الذي لا معقب
لحكمه، وهو الإله المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

[**وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**] في يوم القيامة يحاسب بالعدل دون معقب لحكمه، ولا راد لمشيئته
[**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**] (189)، فهو الخالق،
المالك، ألا له الحكم في الدنيا والآخرة، لوله الحمد في الأولى والآخرة.
ختاما .. إذا كان كل شيء، يسبح بحمد الله فهو إذن مهتد..!!
فعلى الإنسان : أن يستعمل عقله، ويستقرئ آيات الله في خلقه وكونه ونفسه،
ليخضع، ويؤمن ، ويعبد؛ ليصير مهتديا.

دعوة أخرى للإيمان

وبعد أن بين الله عز وجل: تسبيح من في السموات والأرض والطيور له، هداية منه
لها.. وما في ذلك من الدعوة الواضحة إلى الإيمان به، والاهتداء بهداه.
يقدم دعوة أخرى: للإيمان به من خلال هذه الكائنات الدالة عليه سبحانه وتعالى.
حيث يقول:

[**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ
وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ
يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي
الْأَبْصَارِ**]

والمعني:

[**أَلَمْ تَرَ**] أي : ألم تعلم ، أيها الإنسان ، علم اليقين.

[**أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا**] أي : يسوق بقدرته السحاب.

[**ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ**] أي: يضم بعضه إلى بعض، ويجمعه بعد تفرقه.

[**ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا**] أي: متراكما بعضه فوق بعض.

[**فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**] أي: فتري المطر، يخرج من بين هذه السحابات المتراكمة

بعضها فوق بعض.

أيضا...

[وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا] أي: وينزل من السحاب المكون من كتل ضخمة ،
تشبه الجبال في أحجامها وعظمتها ومساقطها وهيئاتها.
[مِنْ بَرْدٍ] وهو ما يبرد من المطر في الهواء فيصلب (190).
[فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ] أي: ينزله على من يشاء من العباد ، وعلى ما يشاء من
البلاد، رحمه بها وبأهلها.

[وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ] فيؤخر الغيث عنه، فيصابون بالقحط والجفاف.
وقد يكون المعنى كذلك [فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ] أي: يصيبهم بالبرد نعمة عليهم، لما فيه
من نثر ثمارهم، وإتلاف زروعهم، وتخريب محاصيلهم، وتدمير منشآتهم بما فيه من
عواصف، [وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ] فيعتدل الجو لديهم، رحمه بهم (191).
وفوق هذه الآيات الكونية الإلهية.. فإنه: [يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ] أي: يكاد ضوء البرق-
الذي يحدث من احتكاك كتل السحاب المتراكم فوق بعضه، يخطف الأبصار، التي تتبعه
ناظرة إليه.
وهذا البرق: دليل على تكاثف السحاب، ويشير بقوة المطر، ومحذر من قوة الصواعق (192).
ويقول الرازي: إن البرق الذي يكون بهذه الصفة... لا بد وأن يكون نارا عظيمة خالصة
والنار ضد الماء والبرد.
فظهوره من البرد: يقتضي ظهور الضد من الضد...
وذلك: لا يمكن، إلا بقدره قادر حكيم (193).
وفوق كل هذا..
[يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ] أ: يتصرف فيهما، فيأخذ- بقدرته- من طول هذا، في
قصر هذا.. حتى يعتدلا.

190 - الراغب الأصفهاني... مفردات ألفاظ القرآن (مادة: برد)
191 - أنظر: ابن كثير... تفسير القرآن العظيم (النور.. الآية 43)
192 - القرطبي.. الجامع لأحكام القرآن (النور.. الآية 43)
193 - الرازي.. التفسير الكبير (النور.. الآية 43).

ثم يأخذ من هذا في هذا: فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً .
كل ذلك: لحكم يعرفها، وغايات يقدرها.. سبحانه وتعالى.
[لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ] أي: في هذه الأشياء ..الدليل على عظمة الله تعالى لمن له: عقل
يعي، وبصيرة تدرك، وقلب يهتدي.
ختاماً...

إذا كانت هذه آيات بينات، واضحات لكل ذي عينين، ويدركها كل من يملك حواساً،
ويريد أن يستعمل عقله..
ولا بد لها من صانع..

فعلى الإنسان: أن يعلم أن هذا ما كان ليكون لولا الله، سبحانه وتعالى.
ومن علم هذا: عرف عظمة الله، واهتدى بهدى الله.

دعوة الثالثة: للإيمان

وبعد...

فبعد هاتين الدعوتين السابقتين، والتي قد تضمنت كل واحدة منهما: أدلة قوية
باهرة، على وجود الله، وعظمته وقدرته.

وهي أدلة : مادية محسوسة، يدركها كل ذي عينين، وعقل مدرك ، وقلب مفتوح.
فقد استدل أولاً: بأحوال السماء والأرض
كما استدل ثانياً: بالأثار العلوية.

ومع ذلك ..تتواصل رحمت ربنا ، سبحانه، في تقديم الدليل تلو الدليل، وتجديد الدعوة
بعد الدعوة إلى الإيمان بالله العزيز الحكيم.

حيث يقدم ربنا تبارك وتعالى الدعوة للمرة الثالثة إلى الإيمان من خلال الأدلة المثبوتة في
هذه الآيات، استدلالاً بأحوال الحيوانات.

يقول تعالى:

[وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]

وهنا: يذكر الله تعالى، قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلق أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها، وألوانها، وحركاتها، وسكناتها... من ماء واحد.

يقول تعالى:

[**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**] كالحية وما شاكلها.. وهذا هو أعجب المخلوقات مشياً؛

حيث يمشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم.

[**وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ**] كالإنسان والطير.. وهذا بعد النوع الأول.

[**وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ**] وهو النوع الثالث، كالأنعام وسائر الحيوانات.

ثم يقول رب العزة:

[**يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**]

تنبيه على أن الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشي... فهي مختلفة كذلك في أمور كثير.

وهو وحده الذي يخلق بقدرته سبحانه ما يشاء؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن.

ولهذا قال:

[**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**] أي: لا يتعذر عليه شيء.

ختاماً:

فإن هذه الآية.. فيها التدليل على هداية الله، بصورة واضحة قوية ملموسة.

كما أن فيها.. التدليل على قدرة الله تعالى، حيث إن الله الذي خلق هذه الأنواع

الكثيرة من الأحياء.. قادر على كل شيء.

والهداية: ليست إلا مظهرًا من مظاهر هذه القدرة.. فإذا تقرر: أن الله.. هو القادر، وهو

الهادي.

فكيف لا يسلم له الإنسان شرعاً وقدرًا، ويؤمن، ويفهم واجبات هذه الدعوة، طواعية

واختيارًا..؟

تعقيب

وبعد هذا كله... وعلي ما سبق... يعقب ربنا مؤكدًا ومقدرًا.

حيث يقول:

[لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]

وفي هذه الآية: بين ربنا- تبارك وتعالى- أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم، والأمثال، وغيرها، ما هو: معجزات، ودلائل واضحات.

[لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ] واضحات لا خفاء فيها، ولا إبهام في معانيها ومراميها.

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) بلطفه ومشيبته 0

[إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] أي: إلى دين الإسلام، الذي يوصل إلى صفته، ورضوانه.

وعلي ذلك..

فعلي من أراد الهداية: أن يبحث هذه الآيات البينات، في الكون المنظور، وفي الكتاب المسطور.

وأن يمثل لها، اجتنابا ونهيا.

وأن يطلب من الله دوما الهداية؛ حيث إنه سبحانه: [يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] .

وبهذا.. فلا حجة لكافر ولا حجة لمعاند، كما أنه لا حجة لجاهل، وذلك: لوضوح هذه الدلائل ، وكثرتها.

القسم الثالث

[بشارة.. وتوجيهات]

(من الآية 47 حتى نهاية الآية 64 آخر السورة)

- ربط
- منافقون
- وعد...وبشارة
- الاستئذان الداخلي
- القواعد من النساء
- أصحاب الأعدار..وبعض آداب الطعام.
- حسن الختام.

وصل...بما سبق

ذكرت السورة الكريمة - فيما سبق - آداباً وأحكاماً: يقوم عليها، وينهض بسببها
المجتمع المسلم.

وهي آداب وتعليم تميزه عن غيره، وتكسبه الخصوصية، التي بها يعلوا ويزهو ويرتقي على مباحج الدنيا ومفاتها، وبها يتفرد سما، وطهارة، وسط المبادئ الوضعية الشائهة، التي يتخللها الحوار، ولا يكتب لها استقرار.

وكذلك: ذكرت - فيما سبق - أيضا دلائل التوحيد، والقدرة الإلهية، في مشاهد الكون الرحيب، الواسع، الكبير، من خلال آياته ومخلوقاته - سبحانه - .

وكل: ذلك لبناء الشخصية الإسلامية السوية، التي ناط الله بها قيادة الكون، الحياة والأحياء..؟؟

ولهذا 00 عادة السورة- في قسمها الثالث- إلى الآداب، والتعاليم، والأحكام... التي يربي القرآن عليها الجماعة المسلمة، من خلال: إعداد الفرد المسلم، ورعاية البيت المسلم، وصولا بها إلى تحقيق الغاية المنشودة من الإنسان [**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**]⁽¹⁹⁴⁾، ومن ثم النجاح في أداء رسالته، التي نيّطت به، وهو قيادة الدنيا وأهلها.. إلى السلام، والحق، والعدل والحرية والأمان، وعبادة الله الواحد [**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**]⁽¹⁹⁵⁾.

ومن المعلوم 00 أن هذه كله، أو بعض هذا كله: لا يكون إلا إذا تحققت في هذه الأمة خيريتها، أو قل: حافظت هذه الأمة على خيريتها، التي شرفها الله بها يوم أن أخرجها للوجود [**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**]⁽¹⁹⁶⁾.

لكل هذا...

عادت السورة: لتظهر قلوب السلمين من النفاق، وتربيههم على الطاعة الواعية البناءة، لقيادتهم الرشيدة، التي تأخذ بأيديهم إلى النصر والعزة والتفوق.

عادت السورة: لتبشر المؤمنين.. بالعلو، والتمكين، والأمن والأمان.

194 - الذاريات: 56

195 - البقرة: 143

196 - آل عمران: 110

عادت السورة: لتكمل حبات اللؤلؤة في منظومة الآداب والتعاليم، التي حفلت بها هذه السورة.

بوصفها كلها كما يقول شهيد الإسلام نابعة كلها، من معين واحد، هو العقيدة في الله، متصلة كلها 00 بنور واحد، هو نور الله، وهي في صحتها: نور، وشفافية، وإشراق وطهارة.

في تربية للصف المسلم.

عناصرها: من مصدر النور الأول في السموات والأرض، نور الله، الذي أشرقت به الظلمات في السموات والارض، والقلوب، والضمائر، والنفوس والأرواح⁽¹⁹⁷⁾.

مناقون

يكشف المولي عن المنافقين، وبعض صفاتهم لنحذرهم.

وفي قوله تعالى:

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48)
وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ
يَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

تحدث هذه الآيات -أيها القارئ الكريم- عن المنافقين، الذين لا ينتفعون بآيات الله
البيانات، ولا يهتدون بتعاليمه الواضحات، ولا يتأدبون بأدب المؤمنين في طاعة رسول
الله، وفي الرضي بحكمه، والطمأنينة إليه.

يقول الإمام القرطبي: قال الطبري وغيره: إن رجلا من المنافقين، اسمه "بشر" كانت بينه
وبين رجل من اليهود خصومة في أرض.

فدعاه اليهودي: إلى التحاكم عند رسول الله ρ وكان المنافق مبطلا.
فأبي من ذلك، وقال: إن محمداً يحيف علينا، فلنحكم كعب بن الأشرف.
فنزلت الآية فيه (198).

(وَيَقُولُونَ) أي: المنافقون، بألسنتهم ما ليس في قلوبهم

(أَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ) أي: صدقنا بوحدانية الله، وبعثة الرسول.

(وَأَطَعْنَا) الله فيما يأمر به، والرسول فيما يحكم به.

وهذا مثل قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)
(199)

بدليل قوله تعالى: (ثُمَّ يَتَوَلَّى) أي: يعرض ويمتنع عن حكم الله ورسوله.

(فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أي: من بعد إعلان إيمانهم، وإظهارهم الطاعة. يخالفون أقوالهم
بأعمالهم.

ولهذا حكم المولي عز وجل عليهم بقوله: (وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) أي: كلهم.. ليسوا
بمؤمنين، وليس من تولى منهم فقط.. إذ الجميع يعتقد ما يعتقد هذا الفريق، ويرضي به.

(و) توضيح ذلك، ودليله: أنهم

(إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ) أي: إلى حكم الله.

(وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) بحكم الله.

تكون المفاجأة العجيبة، التي تكذب أقوالهم، وتكشف نفاقهم، وهي:

198 - القرطبي..الجامع لأحكام القرآن (النور50).

إذا فريق منهم معرضون) عن هذه الدعوة، وعن الاحتكام إلى رسول الله ﷺ ؛ لأنهم يعلمون أنه يحكم بالحق، الذي هم على غيره، في خصومتهم.
(وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ) أي: وإن كان الحق معهم، وفي صفهم، ويريدون الوصول إليه.
(يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) أي: إلى رسول الله ﷺ طائعين لأنهم يعرفون أنه لا ينطق ولا يحكم إلا به.

وهذا موقف منهم عجيب غريب...!!

ما السبب فيه إذن..؟

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ)

نعم: لا يخرج الأمر عن واحد من ثلاثة:

أن يكون السبب لمرض من أمراض القلوب عندهم..!

أو أن يكون قد عرض لهم شك في الدين، أو في رسوله...

أو يخافون أن يجور محمد ﷺ عليهم في الحكم..

وأيا ما كان الأمر فهذا الموقف منهم "كفر محض،

لأنه: لا محل للشك في الدين، ولا جور يكون من محمد ﷺ.. ويتعين إذا بالضرورة، أنه

مرض في قلوبهم وهو الكفر، الذي جبلوا عليه، وهو ظلم منه.

ولذلك يقول رب العزة:

(بَلْ أَوْلِيكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) لأنفسهم، وفي موقفهم، وفي امتناعهم عن الحق وإظهاره،

والحكم به، والتحاكم إلى النبي ﷺ .

وهذا تذييل: يقدر الحكم عليهم بالظلم، الذي ليس بعده ظلم.

وفي هذا التذييل: ما فيه من التنبيه عليهم، والتحذير منهم، والإبعاد عنهم، والتخويف من

الاتصاف بصفاتهم.

هذا...

ويبين الله تعالى - في نفس السياق - الموقف الصحيح 00 من حكم الله ﷺ ورسوله ﷺ

لنترسخ في الذهن: علامة من علامات النفاق، وأمانة من أمارات الإيمان بالنسبة لحكم الله ورسوله p.

إذ يقول تعالى:

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (51) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

أي: إذا كان المنافقون.. حينما يدعون إلى الاحتكام إلى الإسلام وأهله، في أمر يتعارض مع مصالحهم: يرفضون ذلك.

فإن هناك صنفا آخر من الناس: هم المؤمنون، المستجيبون لله ولرسوله، السعداء بالاحتكام إلى الإسلام، والذين لا يبغون دينا سوي كتاب الله وسنة رسوله p . هؤلاء على العكس.. تماما.

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ) في مثل هذا الموقف.

(إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ) أي: إلى كتابه.. فهما، وامثالا.

(وَرَسُولِهِ) طاعة لشخصه في حياته، وإلي سنته عملا بعد وفاته.

(لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) الرسول p أو من ينوب عنه من أئمة المسلمين.. بموجب كتاب الله وسنة رسوله p .

(أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي: سمعنا وطاعة أي: سمعنا قول الله والرسول، وأطعنا أمر الله والرسول، وهذه علامة الإيمان وآية الاهتداء.

ولهذا: وصفهم الله بالفلاح.. وهو نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

فقال: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أي: الناجون الفائزون.

يقول ابن كثير⁽²⁰⁰⁾، والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله.. كثيرة جدا.

فهذا...عبادة بن الصامت، أحد نقباء الأنصار ومن الذين شهدوا بيعة العقبة، وحضروا بدرا.. لما حضرة الموت. قال لابن أخيه.
ألا أنبؤك بماذا عليك وماذا لك؟
قال: بلي.

قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثره عليك.
وعليك: أن تقيم لسانك بالعدل، وأن لا تنزع الأمر أهله، إلا أن يأمرك بمعصية الله
بواحا.

فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله: فاتبع كتاب الله.
ويقول أبو الدرداء: لا إسلام إلا بطاعة، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله،
وللخليفة وللمؤمنين عامة.
وكان عمر بن الخطاب يقول: عروة الإسلام.. شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام للصلاة،
وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين.
وهكذا

فهم السلف الصالح ذلك جيداً..
كما سمعوا حكم الله في كتاب الله وسنة رسوله، وأطاعوه جيداً
فدانت لهم الدنيا.. طولا وعرضا.
وعم خيرهم وعدلهم بلاد الله كلها.
ودخل.. بسبب حسن سمعهم وطاعتهم في دين الله من كل أجناس الأرض أفواجا
انصهرت كلها في بوتقة الإسلام.
ولم ينحسر المد الإسلامي.. هديا، وحضارة: إلا عندما صمّت عن هدى الله الآذان
وتحولت الطاعة عن الاحتكام للإسلام.
ثم..

ثم يبشر الله تعالى المؤمنين، الذين (إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) فيكون قولهم
(سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

يفتح باب البشارة والرضي منه، والفلاح، والفوز: لكل من تشبه بهم، وسار على درجهم.

فيقول تبارك وتعالى:

(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ) في كتابه، وفرائضه، وشرائعه، وأحكامه.

(وَرَسُولَهُ) ويطيع رسول الله أيضا في أوامره، وسنته 0

(وَيَخْشَى اللَّهَ) أي: يخشى عذاب الله على ما مضى من ذنوبه، فيكثر من الاستغفار والطاعات.

(وَيَتَّقِهِ) أي يقي نفسه من معصية الله، وغضبه، فيما يستقبل من أيامه وحياته.

وهكذا..

بشارة عامة لكل من يتحقق منه ذلك، في أي عصر، وأي مصر.

وفيها ما فيها من الحض: على طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله p والخوف الدائم من التقصير في مقتضيات هذه الطاعة.

وفيها كذلك: الفوز الكبير يقول تعالى (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) الذين فازوا بكل خير، ومنه الجنة، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة، ومنه النار.

وبعد أن عرض الله الصورة المقابلة لموقف المنافقين، من الاحتكام لكتاب الله ورسوله p كشفا للمنافقين وتعرية لمواقفهم، وفضحا لمخازيهم، وأكاذيبهم، إذ بضدها - كما يقولون - تتميز الأشياء.

وإعلاء للمؤمنين وبيانا لحسن امتثالهم وعرضا لنتائج أفعالهم، وتشويقا للاقتداء بهم. عاد سياق السورة الكريمة إلى المنافقين مرة أخرى: يحكي بعضا آخر من مواقفهم السيئة، وأكاذيبهم الواضحة والتي يؤكدونها بأيامهم المغلظة.

حيث يقول عزوجل:

[وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ

وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ]

نزلت هذه الآيات: لما قال المنافقون لرسول الله ﷺ أينما كنت نكن معك، لئن خرجت: خرجنا، ولئن أقمت: أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد: جاهدنا(201).

والمعني.. يقول الله تعالى مخبرا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون لرسول الله ﷺ .
(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) أي: مجتهدين في إيمانهم باذلين كل طاقتهم في تأكيدها، متعبين أنفسهم فيها؛ لأنهم يخفون بها عدم صدقهم.

(لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ) أي: حلفوا لئن أمرنا محمد ﷺ بالخروج إلى الغزو لنغزوا أو لئن أمرنا بالخروج من ديارنا: لنخرجن.

(قُلْ لَا تُقْسِمُوا) أي: لا تحلفوا.

(طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ) أي: طاعة معروفة، صادقة، أولى لكم من هذه الطاعة المزيفة، التي تؤكدونها بالأيمان الكاذبة.

أو: الذي يطلب منكم.. طاعة معروفة، أي معلومة، لا يشك فيها أحد، ولا يرتاب كطاعة المخلص من المؤمنين وليست طاعة تقسمون عليها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها.

وقيل معناه: طاعتكم.. طاعة معروفة، أي: قد عرفت طاعتكم.. فهي قول لا فعل معه، وكلما حلفتكم كذبتكم.

وقيل معناه: ليكون أمركم.. طاعة بالمعرف، من غير حلف ولا تأكيد، كما يطيع المؤمنون ربهم بغير حلف.. فكونوا أنتم مثلهم.

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي: هو خبير بكم، عليم بأحوالكم، وبمن يطيع وبمن يعصي.

وعلي هذا.. فالحلف وإظهار الطاعة، والباطن بخلافه، وإن راج على المخلوق، فالخالق يعلم السر وأخفي لا يروج عليه شيء من التدليس بل هو خبير بضمائر عباده، وإن أظهروا خلافها.

وفي ذلك: تهديد لهم، أن يفضحوا.

ثم يقول تعالى لحبيبه ﷺ :

(قُلْ) لهم... من باب الأمر، والاختبار والامتحان لصدقهم.
(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) أي: اتبعوا كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ بالفعل والقول معا،
وليس بالقول فقط، وإن كنتم صادقين.
ثم يقول تعالى لهم..هم.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا) أي: فإن تتولوا عن محمد ﷺ وتعرضوا، وتتركوا ما جاءكم به من الهدى
..فما ضررتوه، وإنما ضررتم أنفسكم (فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ) أي: على الرسول ﷺ .. ما
حمله الله إياه: من إبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة.. فإذا أدي ما عليه: فقد خرج من عهدة
التكليف (وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ) من العمل بما أبلغكم به، وتعظيمه والمحافظة عليه، فإن لم
تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه.
(وَإِنْ تُطِيعُوهُ) فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، (تَهْتَدُوا) أي: فقد أحرزتم نصيبكم من
الهدى.

وبذلك: فالضرر عند الإعراض، والنفعة عند الطاعة.. عائدان إليكم.
(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) أي: ليس عليه إلا أن يبلغ فقط، وليس له ولاية
على قلوبكم، وليس عليه- في ذات الوقت،- ضرر في توليكم وإعراضكم.
وذلك: مثل قوله تعالى: (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) (202).
ومثل قوله سبحانه: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) (203)
وفي النهاية لا يفوتنا أن نعرض هذا الدرس الهام، الذي يفهم من هذه الآيات الكريمة.
يقول الأستاذ/ سعيد حوى : عرض الله علينا- فيما مر- ظاهرتين خاطئتين، تتنافيان مع
الطاعة والاهتداء وهما:

رفض الاحتكام إلى الله والرسول.
وادعاء الطاعة باللسان فقط، والأمر على خلافه.
وهذا: يدلنا على أن الصراط المستقيم المذكور في قوله تعالى قريبا.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، مظهره قبول الاحتمام إلى الله والرسول ρ في كل شيء، وكذلك: الطاعة الكاملة لله والرسول في الظاهر والباطن (204).

ومن هذا نفهم:

أن عدم الاحتمام إلى الله والرسول ρ وإهمال ما جاء عن الله والرسول، وعدم العمل به والاهتداء بهديه..!!

وأيضاً، عدم الطاعة الكاملة لله تعالى فيما أنزله في كتاب، وعدم الطاعة للرسول ρ فيما ورد صحيحاً من سنته عليه الصلاة والسلام.

عدم هذا وذاك: هو الضلال، كل الضلال، بل هو الهلاك، كل الهلاك..!!

وعد.. وبشارة

والآن تأتي بشارة أهل الإيمان الذين يحتكمون - ويقدمون الطاعة الكاملة - لله ولرسوله

ρ

في صورة: وعد من الله تعالى.

إذ يقول عز من قائل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ

قال القرطبي : قال أبو العالية: مكث رسول الله ﷺ بمكة سنتين، بعد ما أوحى
إليه.. خائفا هو وأصحابه يدعون إلى الله سرا وجهرا.

ثم أمر بالهجرة إلى المدينة.. وكانوا فيها: خائفين يصبحون ويمسون في السلاح.

فقال رجل: يا رسول الله.. أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح..

فقال عليه الصلاة والسلام"لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم، في الملاء العظيم
محبيا(205)، ليس عليه حديدة.

ونزلت هذه الآية.

وأظهر الله نبيه ﷺ على جزيرة العرب.. فوضعوا السلاح (وأمنوا)(206)

هذا..

ولأن العبرة، كما يقول العلماء بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب..

ولأن لفظ الآية عام..!!

فإن هذا الوعد، وهذه البشارة لهما صفة العموم.

فهو وعد لكل من تحققت منه مطالب الآية.. في أي عصر، وأي مصر.

وهي بشارة إلهية .باقية إلى يوم القيامة

وهذه الآيات الثلاث الكريمة.. تضمن تسعة أشياء(207).

ثلاثة منها: مطلوبة.

وثلاثة منها : موعودة.

وثلاثة منها: مرفوضة.

205 -الاحتباء .. هو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما مع ظهره، ويشده عليهما، وقد يكون الاحتباء باليدين بدل الثوب

(النهاية في غريب الحديث والأثر) باب الحاء مع الباء مادة: حبا.

206 -القرطبي..الجامع لأحكام القرآن (النور:55)

207 - أنظر ذلك بتوسع في كتابنا "المسلمون بين الأزمة والنهضة.

فإذا ما حققت الأمة؛ الأمور الثلاثة المطلوبة ، ونجت وتخلصت من الثلاثة المرفوضة:
نالت الثلاثة الموعودة.

وتوضيح هذا الكلام - باختصار شديد- كالتالي:

1- الإيمان (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ)

2- العمل الصالح (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

3- العبادة (يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

ثانيا: تعد المؤمنين، بعد تحقق المطلب الثلاثة بثلاثة أشياء .. هي:

1- أن يكونوا : أئمة الناس، والولاة عليهم. . يعني: زعماء العالم (لَيْسَتْ خُلَفَائِهِمْ فِي

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

2- التمكين للإسلام (وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

3- توافر الأمن لهم ولبلادهم من بعد خوفهم (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

ثالثا: تحذر المؤمنين، وترفض منهم وفيهم. . ثلاثة أشياء هي:

1- خطر العصاة (وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

2- خطر الغرور (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

3- خطر الحرب النفسية (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ

النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ)

هذه الأشياء التسعة: فهمها المسلمون الأوائل.

فحققوا: ما طلب منهم.

وتجنبوا: ما حذروا منه

فنالوا: ما وعدوا به.

نعم.. حقق الله لهم وعده

وقد فعله تبارك وتعالى، كما يقول ابن كثير والله الحمد والمنة (208).

فإنه ρ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكماها.

وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام.

وهداه ملك الروم وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس، وملك عمان والنجاشي ملك الحبشة.

ثم لما مات رسول الله ρ واختار الله له ما عنده من الكرامة.

قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلم شعث ما وهي بعد موته ρ وأخذ جزيرة العرب ومهداها وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس بصحبة خالد ابن الوليد رضي الله عنه ، ففتحوا طرفا منها وقتلوا خلقا من أهلها، وجيشا آخر بصحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالث بصحبة عمر وبن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصري ودمشق ومخالفيهما من بلاد حوران وما والاها:

وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة.

ومن على أهل الإسلام بأن أهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بالأمر بعده قياما تاما لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مصله في قوة سيرته وكمال عدله.

وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكماها وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس.

وكسر كسري، وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكي صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان وبلاد سبته مما يلي البحر المحيط ومن ناحية الشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسري وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق، وخراسان والأهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جيّدًا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبي الخراج من المشارق

والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن.

وأقول:

والآية في نفس الوقت: وعد لجميع المسلمين من الله سبحانه وتعالى بأن:

يجعل منهم خلفاء الأرض، والقادة عليهم والزعماء لشعوبها.

ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم فينتشر نوره، ويعم هديه، وتسود مبادئه، وتهيمن أحكامه وتشريعاته.

ويبدل خوفهم أمناً.. أمناً في كل شيء، في الدين، في النفوس في المال، في الأولاد، في الوطن، في... في... الخ.

أملاً في: الخروج من هذه الأزمات التي نعاني منها، نحن مسلمي اليوم والتخلص من أوزار هذا التخلف المهين، والانحطاط المشين.. والدخول في سباق الأمم؛ فننهض؛ فنتولي زمام القيادة العالمية، إلى الهداية التي هي أقوم.

وفي ضوء ما تقدم: تعال معي أيها القارئ الكريم.. نقرأ هذه الآيات الكريمة مرة أخرى قراءة تفسيرية

يقول تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ) وهذه بشارة إلهية في صورة وعد منه سبحانه، ووعد الله لا يتخلف (أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) (209)

ولكن وعد من...؟

وعد.. (الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) حال تحليهم بعبادته - وحده - سبحانه.

يعني: وعد الذين اتصفوا بثلاث صفات.. هي (210).

أ) الإيمان.. بمعنى الثقة واليقين الكامل في هذا الدين.

ب) والعمل الصالح.. وهو: كل ما يسعد العباد، ويصلح البلاد، ويكون في إطار

ما شرع الله.

ت) والعبادة.. بمفهومها الشامل، الذي ينبئ عنه قوله تعالى: (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ**

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)⁽²¹¹⁾

وعد هؤلاء .. بماذا؟

1- (**لَيْسَتْ خَلْفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**) أي: يجعلهم خلفاء فيها، وقادة لأهلها، وروادا في نهضتها، وإسعاد أهلها.

2- (**كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**) أ]: ليستخلفنهم استخلافا كائنا، كاستخلافه الذين من قبلهم.. من الأمم المؤمنة، الذين أسكنهم الله تعالى في الأرض بعد إهلاك أعدائه، من الكفرة الظالمين⁽²¹²⁾.

والمعني: ليجعلن دينهم ثابتا مقررًا، بأن يعلي، سبحانه، شأنه، ويقوى بتأييده- تعالى- أركانه، ويعظم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون خيلهم ورجلهم للتوصل إلى إخفاء آثاره فيكونون بحيث يأسون من التجمع لتفريق المسلمين عنه، ولا تكاد تحدثهم أنفسهم للحيلولة بينهم وبين مبادئه والعمل بها.

وقيل المعني: ليجعلها مقررًا ثابتًا، بحيث يستمر المسلمين على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يذرون⁽²¹³⁾.

ولا مانع عندي من إرادة المعنيين.

3- (**وَلَيَبْدَنَّهْمُ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**) أي: يرزقهم الأمن والأمان في الدنيا.. علي أنفسهم وأهليهم، وأوطانهم، ومبادئهم.. إلخ، وذلك بعد خوفهم- في الدنيا- من أعدائهم في الدين، بمقتضى الطبيعة البشرية.

ثم يقول تعالى: (**يَعْبُدُونِي**) أي: يتحقق لهم ما ذكر، حال كونهم.. يتصفون بهذه الصفة الثالثة: إلى جانب الصفتين السابقتين، وهما الإيمان، والعمل الصالح.

211 - الذاريات : 56

212 - الألويسي..روح المعاني (النور:55)

213 - الألويسي..المصدر السابق.

(لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) أي: لا يعبدون إلهًا غيري، وقيل: لا يراؤون بعبادتي، وقيل: لا يخافون غيري (214).

وبعد ذلك: يذكر الله تعالى.. المحاذير الثلاثة التي ينبه عباده عليها، وينفرهم عنها، ويبعدهم من مخاطرها.. وهي (215).

1- خطر العصاة في الصف الإسلامي

يقول تعالى (وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) والكفر هنا: من الكفران، وليس من الكفر الذي هو ضد الإيمان (216).

أي: أنه بمعناه اللغوي: وهو ستر الشيء.

وعني بالكفر: الساتر للحق.

ولذلك: صار فاسقًا.

وعلي ذلك.. فمن جحد حق الله: فقد فسق عن أمر ربه بظلمه (217).

أي: من جحد وأنكر وعد الله هذا: فقد فسق عن أمر ربه.

ومن فقد الثقة في هذا الدين، فقد فسق عن أمر ربه

ومن انغلق في فهمه للأعمال الصالحة: فقد فسق عن أمر ربه.

ومن انحرف بالعبادة عن مفهومها الواسع الشامل: فقد فسق عن أمر ربه

ومن لم يصدق وعد الله بالاستخلاف للمؤمنين في الأرض فقد فسق عن أمر ربه.

ومن لم يصدق وعد الله بتبديل المؤمنين- من بعد خوفهم- أمنا: فقد فسق في أمر ربه.

ومن يزرع الشك في نفوس المؤمنين بهذا الوعد: فقد فسق عن أمر ربه.

ولأن هؤلاء: مصدر خطر، ومنبع شقاء وديبب عجز وهزيمة، وشر مستطير، ومرض

عضال خطير.. بين أفراد الجماعة المؤمنة: فقد بين المولي، حرصا منه على أوليائه، هذه

214 - القرطبي..الجامع لحكام القرآن (النور:55)

215 - المسلمون بين الأزمة والنهضة(سابق)

216 - الألويسي..المصدر السابق.

217 - الأصفهاني..المفردات (ك الكاف)

الفئة المهزومة نفسيا والتي تحاول زرع الهزيمة حيثما وجدت، كشفها لدورها، وشلا لفاعليتها حتى لا تعوق الأمة عن مسيرة النجاح والصعود لنهضتها وتحقيق آمالها.

2- خطر الغرور، أن يظهر من الأمة أو أفرادها، حال الاتصاف بالمطلوب أو بعد تحقق الموعود.

يقول تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أي: التزموا بشرع الله، ولا تحيدوا عنه، وأخلصوا النية والعمل لله وحده، ولا تظنوا أن ما بكم من نعمة هو من عند أنفسكم، بل هو من عند الله، (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) (218).

وأطيعوا الرسول ρ فيما جاء به ، وبينه وقولوا له ولتعاليمه [سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا] (219)، ولا تغتروا أبدا، ولا تقولوا مثل الذين قالوا: [سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا] (220)

أي: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الرسول.. راجين أن ترحموا (221).

وهذا.. ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون، مهما بلغوا من درجات الرقي، والتمكين، والأمن، صيانة لهم من الهدم، ولل بشرية من الضياع.

3- خطر الحرب النفسية:

حيث يقول تعالى: [لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ] .

أي: لا تظنن أيها المؤمن أن الكفار أعداءك.. يهربون من الله وينجون بهروبهم، من عذابه أبدا.

والحرب النفسية: أخطر كثيرا على الأمم والجيوش من حرب القنابل والدبابات، وأسرع كثيرا في الوصول بمن تصوب إليه الهزيمة من الصواريخ والنفاثات.

218 - الحل: 53

219 - النور: 51

220 - النساء: 46

221 - أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (النور: 56)

إذ هي توجه مباشرة إلى الإدارة في الإنسان والتصميم لديه على بلوغ هدفه؛ ففتتك بهزيمته، وتشل فاعلية رغبته، وتحيله كافرًا بمبادئه التي كان يدافع عنها، ويحارب من أجلها، أو على الأقل شاكا متشككا فيها، وفي صلاحيتها.

وهنا: يسهل تخريبه، وتحطيمه، وتدميره.

بينما توجه القنابل والدبابات والصواريخ والنفاثات وغير ذلك من أعتي الأسلحة: إلى جسم الإنسان التي قد تصيبه، وقد لا تصيبه، فإن أصابته: غذيت المبادئ التي أصيب من أجلها بدمه ونمت وترعرعت فيمن بعده من أتباعه، وإن لم تصبه: زاده نجاحه في النجاة من شرها والتغلب عليها إصرارًا على مبادئه ودفاعا عنها.

ومن هنا: كان حرص المولي سبحانه وتعالى على حماية أوليائه من أخطار هذه الحرب النفسية، التي توجه إليهم من أعدائهم.

وهي: حرب دائمة، مستمرة، نشطة، متجددة، متلونة، مؤثرة، كذلك في كثير من النفوس.

ولهذا: كان الاهتمام والتركيز الشديد من القرآن الكريم على مواجهة هذه الحرب. وتتمثل هذه المواجهة في عدة أمور⁽²²²⁾.

الأول: تحجيم هؤلاء الأعداء، والتهوين من شأنهم.

الثاني: بيان أن الغلبة لأولياء الرحمن.

الثالث: التأكيد على أن النصر من عند الله.

الرابع: البشارة بسوء مال ونهاية الأعداء في الدنيا والآخرة.

وكلها تعطي الثقة الكاملة للمؤمنين، وتزرع في نفوسهم القوة الحقيقية وتبعد عنهم شبح

الحرب النفسية، مهما تجددت وتلونت أساليب هذه الحرب.

وهذا واضح غاية الوضوح في قوله تعالى:

[لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ]

ومن الذي يملك إبطال إعجازهم وقوتهم وجبروتهم؟

إنه بالطبع من يملك أن يجعل مأواهم النار.

وهو الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا:

1- فالذين كفروا ليسوا بغالبين.

2- والذين آمنوا هم الغالبون.

3- وأن تعجز الكافرين، وغلبة المؤمنين: من الله سبحانه وتعالى، ولا يملك ذلك في الحالين إلا هو.

4- وأن مأوي الكافرين النار.

وهي بشارة بالسوء لهم، تتضمن البشارة الحسني للمؤمنين الذين مأواهم بفضل الله الجنة. وهي: آية عظيمة، كافية في رفع الهزيمة عن نفوس المؤمنين، حتى لا تصيبهم بشتى الوسائل، وبعديد الألوان⁰

وهي - كذلك - آية عظيمة، كافية في فتح أبواب النصر، والغلبة، والتفوق على أعداء الله سبحانه وتعالى، أعداء المسلمين، في شتى مجالات التفوق والاستعلاء . ومضمون هذه الآية واضح في القرآن الكريم غاية الوضوح، والتركيز عليه بالغ الاهتمام في نقاطه الأربع.

قال الأستاذ المودودي في تفسيره لسورة النور⁽²²³⁾.

وهذه وعدمن الله تعالى للمسلمين، بأنه سيجعلهم خلفاء الأرض أي أئمة الناس وقادتهم والمقصود من هذه الآية، كما أشرنا إليه من قبل تنبيه المنافقين على أن هذا الوعد الذي قد قطعه الله تبارك وتعالى للمسلمين ، ليس الخطاب فيه لكل من ينتمي إلى الإسلام ولو إسما، بل إنما هو للمسلمين الذين هم صادقون في إيمانهم، وصالحون باعتبار أخلاقهم وأعمالهم، ومتبعون لدين الله الذي قد ارتضاه لهم، وملتزمون لعبادته وعبوديته وحده، وغير مشركين به شيئا، وأما الذين ليسوا على تلك الصفات، وإنما يدعون الإيمان بألسنتهم، فلا يستأهلون هذا الوعد، لأنه لم يقطع لهم، فلا يرجون أن ينالوا نصيبا منه.

أ) وأمر آخر يجدر بالذكر في هذا المقام هو أن هذا الوعد وإن كان شاملا للمسلمين في جميع الأزمان، ولكن الخطاب المباشر فيه لأولئك المسلمين الذين كانوا في عهد الرسول ρ وحقا إن المسلمين كانوا في حالة شديدة من الخوف أيام نزول هذا الوعد حتى كانوا لا يضعون سلاحهم، وما كان دين الإسلام قد تمكن لهم، حتى ولا في أرض الحجاز، ولكن هذه الحالة ما تبدلت في عدة سنوات بحالة الأمن والرفاهية والطمأنينة فحسب، بل تجاوز فيها الإسلام حدود جزيرة العرب وانتشر في أكبر جزء من إفريقيا وآسيا، ولم ترسخ جذوره ي منبت أرومته فقط، بل في أكثر أقطار الأرض.

فهذا شاهد تاريخي بأن الله تعالى قد أنجز وعده في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

ج) إن هذه الوعد قد تحقق لهذه الأمة، وهو مستمر لكل من تحقق بمواصفات الاستخلاف، لما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ρ أنه قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى يوم القيامة وفي رواية: حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك... وفي رواية، حتى يقاتلون الدجال - وفي رواية - حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون) قال ابن كثير: وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها.

د) إن الاستخلاف والتمكين والأمن لا تكون إلا بعد خوف واستمرار على الحق واستمرار على الإيمان والعمل الصالح، حتى يأتي النصر، والذي نلاحظه أن كثيراً من المسلمين إذا جاء الخوف تركوا وانعزلوا، وأن كثيرين ليسوا متحققين بشروط الاستخلاف ومن ثم نرى أن النصر يبطل على حملة دعوة الله، والرجاء من أهل الإسلام أن يتحققوا ويتسمروا.

هـ) في هذه الآية معجزة من معجزات القرآن إذ أنها تحدثت عن غيب ووقع. وها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، فنسأله الإيمان به ورسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.

عود على بدء..(الاستئذان الداخلي)

ولما فصل الله تعالى آداب الاستئذان بالنسبة لدخول البيوت الخاصة، وآداب الإفاضة من الأماكن والمرافق العامة، حسب ما بيناه فيما سبق، ووضح ذلك النبي ﷺ بأقواله وأفعاله، علي النحو الذي تقدم: أتبعه سبحانه بما يوضح آداب الحركة داخل البيت الواحد، ويبين قواعد الاستئذان بين أفرادها، والمقيمين فيه حيث يقول تعالى:

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) وَإِذَا بَلَغَ

الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ أَحْلَمَ فَلَيْسْتَأَذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [

وسبب نزول هذه الآيات يوضحه ما يلي:

لما أحسن الناس متعة الحرية في البيوت⁽²²⁴⁾، وحفظ تشريع الاستئذان علاقات المودة والترابط والاحترام فيما بينهم، ونظم عملية اختلاط الرجال بالنساء وسد ما فيها من الثغرات التي تجلب على المجتمع كثير المفسد. تطلعت نفوسهم إلى ما هو أدق من ذلك: وهو تنظيم كيفية دخول الأقارب على بعضهم البعض، داخل البيت الواحد.

ويصور لنا هذا التطوع الواحد في كتابه (أسباب النزول)

حيث يذكر في رواية عن ابن عباس أنه قال: وجه رسول الله ﷺ غلاما من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهر ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة، كره عمر رؤيته ذلك.

فقال عمر: يا رسول الله، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان.

ثم يذكر في رواية أخرى عن مقاتل أنه قال: إن أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير، وقد دخل عليها في وقت كرهته.

فأتت رسول الله ﷺ فقالت: "إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهه.

وكان عمر وأسماء بنت مرثد رضي الله عنهما يستغيثان بالسمااء طلبا لتشريع يحمي البيوت من المفسد التي تنشأ من الاختلاط المألوف داخلها، وينظم لأهل البيت الواحد آداب دخول بعضهم على بعض، ويثبت في الوقت نفسه حق الفرد في خلوته بيته.

وكان هذا التشريع الإلهي الذي ينظم الحركة داخل البيت الواحد، وبين الأقارب أنفسهم، والذي يؤسس قاعدة هامة.

وهي: أن العبيد، والخدم، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، لهم الحق في التجول والطواف داخل البيت إلا في أوقات ثلاثة فيمنع منهم هذا الحق إلا بعد الاستئذان، الذي يحفظ للشخص حرته وللبيت سلامة أسرارها، وبعدها عن المفاسد. وذلك بقوله تعالى:

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...] الآيات.

وبذلك : تكاملت آيات الاستئذان وتأسست حرية الأفراد في خلوتهم داخل بيوتهم، واتضحت الأحكام التي تسد الثغرات التي قد تؤدي إلى المفاسد الاجتماعية والانحرافات الخلقية. وبذلك -أيضا- تكاملت أحكام السورة التي تعالج المفاسد الاجتماعية، والتي تقي - كذلك - منها قبل وقوعها. ومعنى هذه الآيات.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ] أي من العبيد والإماء [وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ] أي الأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار. [ثَلَاثَ مَرَّاتٍ] في اليوم واللييلة وهي.

[مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ] لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة. [وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ] وهي نصف النهار في القيط، لأنها وقت وضع الثياب للقبولة.

[وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ] لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة، والالتحاف بثياب النوم.

[ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ] أي هي أوقات ثلاث عورات وسمي كل واحد من هذه الأحوال عورة لأن الإنسان يختل تستره فيها، والعورة الخلل.

[لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ] عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات

والمعني أنه لا إثم عليكم ولا على المذكورين في الدخول بغير استئذان بعدهن.

ثم بين العلة في ترك الاستئذان وراء هذه الأوقات بقوله:

[طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ] يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة

والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام فلو جزم الأمر

بالاستئذان في كل وقت لأفضي إلى الحرج، وهو مدفوع في الشرع بالنص.

[كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ] أي كما بين حكم الاستئذان يبين لكم غيره من

الآيات التي احتجتم إلى بيانها.

[وَاللَّهُ عَلِيمٌ] بمصالح عباده [حَكِيمٌ] في بيان مراده.

[وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ] أي الاحتلام [فَلْيَسْتَأْذِنُوا] أي إذا بلغوا، وأرادوا

الدخول عليكم فليستأذنوا في جميع الأوقات.

[كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ] أي الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال، أو

الذين ذكروا في الاستئذان أول السورة والمعني: أن الأطفال مأذون لهم في الدخول،

بغير إذن إلا في العورات الثلاث ، فإن اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا بالاحتلام، أو

بالسن، وجب أن يفظموا عن تلك العادة، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع

الأوقات، كالرجال الكبار، الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن والناس عن هذا

غافلون.

[كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] أي عليم بمصالح الأنام، وحكيم فيما

بين من الأحكام.

وعلي هذا فآيات الاستئذان هذه مكملة لآداب الاستئذان المذكورة من قبل

ونلاحظ ما يلي:

(أ) أن لآيات الاستئذان بين أفراد البيت الواحد قد تأخرت عن آيات

الاستئذان لدخول بيوت الغير والأماكن العامة.

وكذلك قد فصل بينهما بثمان وعشرين آية، تتضمن التمهيد الذي يوجب الامتثال بالأوامر، والنواهي الواردة فيها⁽²²⁵⁾.

وكل هذا : زيادة اعتناء، وشدة اهتمام بهذا النوع من الاستئذان الداخلي، خاصة: وأنه غير سهل التنفيذ، وغير ثابت المعيار في التطبيق ويدخل فيه التساهل أكثر ما يدخل في الاستئذان في دخول بيوت الغير، مما يترتب عليه من الأضرار والأخطار مالا تحمد عقباه.

ولذا: ناسب أن يؤخره المولي سبحانه وتعالى ويفصل بين النوعين على هذا النحو؛ حتى يقدم لهم من آياته البينات ما يجعلهم:

[إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا]⁽²²⁶⁾،

حتى ولو خفيت عليهم علل هذه الأحكام.

بينما الاستئذان الأول: ظاهر الضرورة بالنسبة للجميع.

ولذا ناسب أن يأتي به مباشرة عقب آيات العلاج، دون احتياج إلى هذا الفاصل بين الاستئذان العام والخاص.

ب) أن القاعدة الأساسية التي تفهم من آيات هذا النوع الداخلي من الاستئذان هي: أن لا يستأذن الخدم والعبيد والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم على أهل البيت الواحد في جميع الأوقات.

وذلك: بحكم المصالح البيئية: والضرورات المعيشية، التي تعوق سهولة الحركة فيها فرضية الاستئذان على مثل هؤلاء في جميع الأوقات.

ج) أن الاستثناء من هذه القاعدة: هو فرض الاستئذان على هؤلاء المذكورين في جميع الأوقات الثلاثة.

225 - أبو السعود: إرشاد العقل السليم (النور: 58)

226 - النور: 51

(د) أن سبب هذا الاستثناء : هو الاعتراف بحق صاحب البيت في أن يختلي بنفسه، وينفرد في بيته في هذه الأوقات.

تمكيننا للمسلمين من التحفيظ على أسرارهم والحصول على راحتهم في بيوتهم بشتى الطرق.

وتبنيها لهم كذلك على الحذر من فرض الأمان للخدم والعبيد والأطفال الصغار. وهو في الوقت نفسه رفع للحرص عن أهل البيت الواحد بسبب أن هؤلاء [**طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ**] ولو لم يوجد هذا الاستثناء على هذه النحو لكان في ذلك حرص ومشقة شديدين.

وأن هذه الاستثناء بفرض الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة بالذات: إنما هو لمصلحة المسلمين والعمل على توفير أسباب الراحة لهم حتى داخل بيوتهم، إذ أن هذه الأوقات الثلاثة ..هي التي يحتاج المرء أن يتسريح فيها، ويخلص من التكلف ومراعاة الواجبات نحو الغير، وهي الأوقات التي يحلو للمرء أن يطرح فيها الاحتشام، ويملك في نفسه حرية التصرف، فيختار الوضع الذي يروقه، والهئية التي توافقه، وهو آمن من اطلاع الغير عليه مهما كان ذلك الغير، وما منا إلا من يشعر بأنه لابد للمرء من وقت يتمتع فيه بالحرية الكاملة، وأي وقت هو أحوج فيه إلى هذا ، من هذه الأوقات الثلاثة.

1- وقت ما قبل صلاة الفجر حين يستيقظ من نومه ويهب من فراشه فيخلع ثوبا ويلبس ثوبا، ولعله بحاجة إلى تدليك بدنه أو إلانة أعضائه، ولكل امرئ عاداته الخاصة به.

2- ومن بعد صلاة العشاء: حيث يكون قد فرغ من عمله، وانتهى من عبادته وركنت نفسه إلى أن يأوي لفراشه فهو يخلع ثياب اليقظة، ويلبس ثياب النوم، وربنا كان يميل إلى الأنس بأهله فلا منغص له في هذه الحالة أكثر من أن يفاجأ بدخيل عليه مهما صغر سنه، أو قوي اتصاله به.

3- وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة: وهو الوقت الثالث، وهو ليس محدودًا في ذاته تحديدًا تامًا، فرب امرئ دعاه عمله إلى تعجيل القيلولة، وآخر يري صالحه في تأخيرها، وقد يستغني عنها ثالث بالمرّة (227).

(ه) عودة على بدء:

ولما تعرضت هذه الآيات للأطفال، ووجوب استئذانهم في هذه الأوقات الثلاثة، عقبته عليه بحكم يتعلق بهم، ويناط بتنفيذه ببلوغهم سن العقل والتمييز [وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ] أي يتغير حكمهم ووضعهم ويفرض عليهم من آداب الاستئذان وقواعده ما يفرض على غيرهم من الأجانب الذين سبق حكمهم متى أرادوا دخول بيوت الأجانب عنهم أو بيوت الأقارب إليهم.

ومن هذه اللفتة الكريمة، والتنبيه الإلهي الحكيم نفهم:

1- أن الأطفال يتغير وضعهم في بيتهم وبين ذويهم بتغير سنهم وإدراكهم تغيرا يهدف إلى المحافظة على أسرار البيوت وحرية أصحابها في التمتع بأوقاتهم فيها، والعمل بقدر الإمكان على عدم الإطّلاع على العورات.

2- أنه غير مسموح -داخل البيت الواحد- بدخول أحد على أحد دون استئذان : سوي دخول الزوج على زوجته، أو الزوجة على زوجها.

3- أن البيت الإسلامي محصن ومصان إلى أبعد الحدود، تلافيا للفتن ودرءا للمفاسد، وقتلا للشبه؛ وذلك بفرض طلب الاستئذان في دخوله بالنسبة للأجنبي والقريب على السواء، وتما صيانته بفرض طلب الاستئذان كذلك داخل البيت الواحد بين أفرادهم أنفسهم في أوقات معينة، تستوجبها الضرورة.

ولهذا كله..

ناسب أن يختم المولي سبحانه وتعالى تتميم آيات الاستئذان بقوله تعالى:

[كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ]

أي بمثل هذا البيان الشافي الوافي يبين الله تعالى لكم الآيات والأحكام والقواعد التي تنفعكم، وهو سبحانه وتعالى: عليم بما يناسب مصالحكم من تشريع، عليم بمن يمثل أحكامه منكم، ومن يخالفهم، حكيم في جميع أفعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشا ومعاداً (228).

القواعد من النساء

آيات الاستئذان الداخلي، التي تحدثنا عنها في النقطة السابقة، جاءت مكملة لآداب الاستئذان في البيوت الخاصة والأماكن العامة التي ذكرت في السورة من قبل.

وكما أنه بعد آيات الاستئذان هناك: جاء الأمر بغض البصر، وعدم إبداء الزينة..

تأتي هنا آية... تكمل الحكم ذاك.

وهو: أن القواعد من النساء.. ليس عليهن من الحجر في التستر، كما على غيرهن من النساء.

وكما كان بين الأمر بالتستر والاستئذان هناك صلة: فالأمر كذلك هنا؛ لأن القواعد من النساء.. أكثر ما يدخل عليهن الأقارب.

ومن ثم.. جاء حكمهن في التستر، بعد آداب الاستئذان الخاصة في الأقارب (229).
يقول تعالى:

[وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ

ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ]

ومعني الآية:

228 - أبو السعود: إرشاد العقل السليم (النور: 58)

229 - سعيد حوى.. الأساس (النور: 60)

[**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ**] أي: النساء الكبيرات المسنات اللاتي قعدن عن: النكاح أو الحيض أو عن الاستمتاع أو عن الحمل، أو عن الجميع.

[**اللَّائِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا**] أي: ليس هن رغبة في الزواج، ولا تطلع إليه ما حكمهن..؟

[**فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ**] أي: ليس عليهن.. إثم، أو حرج وسلامة، في أن يتخفن يخلع ثيابهن الظاهرة.. كالجلباب، و (الملاءة) التي تكون فوق الخمار.

وهذا.. من تيسير المشرع سبحانه وتعالى للمرأة المسلمة، في مسألة الزي واللباس.

ولكن.. بشرط أن يكن.

[**غَيْرَ مُتَّبِرَّحَاتٍ بَرِيئَةٍ**] أي: غير مظهرات زينة، مما قد نهي عن إظهاره في قوله والتبرج : تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه. وعلي هذا..

فلهن [**أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ**] تخففا، وليس لكشف مواطن الزينة الخفية، والتبرج. لأنه: إذا كان هذا الحكم التخفيف والتيسير، فلا ينبغي أن تكون منه الفتنة، أو فيه المخالفة.

ومع كل هذا.. يقول ربنا تبارك وتعالى:

[**وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ**] عن وضع ثيابهن، من باب المحافظة والاحتياط.

[**خَيْرٌ لَّهُنَّ**] في الدنيا، بالبعد عن مواطن الفتنة، وفي الآخرة، بثواب حسن الامتثال.

ثم يعقب ربنا على هذا الحكم.. بهذا التذييل البديع للآية، إذ يقول: [**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**] أي: سميع لما يقلن أيضا، ويقال لهن، من طيب الكلام.

أو سيئه، عليهم بما يقصدون في أعمالهن، عليهم بما يناسب عباده من شرعه تعالى.

وفي هذا التذييل: ما فيه.. من الوعد للممثل، الوعيد للمخالف.
ونختم الحديث هنا.. بملحوظة هامة ذكرها الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية.
يقول رحمه الله: من التبرج.. أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين بصفاته.
روي في الصحيح: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ "صنفان من أهل النار
لم أرهما:

قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس
ونساء: كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة.. لا
يدخلن الجنة، ولا يجدن رجها، وإن رجا ليوجد من مسيرة كذا وكذا".
قال ابن العربي: وإنما جعلهن كاسيات؛ لأن الثياب عليهن... وإنما وصفهن
بأنهن عاريات؛ لأن الثوب إذا رق يصفهن، ويبيدي محاسنهن.
وهذا: حرام

قلت: هذا أحد التأويلين للعلماء في هذا المعنى.
والثاني: أنهن كاسيات من الثياب، عاريات من لباس التقوى، الذي قال الله فيه
[**وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ**] (230).

وأنشدوا:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقي تقلب عريانا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا
قال القرطبي: هذا التأويل أصح التأويلين.

يقول: وهو اللائق بمن في هذا الزمان وخاصة الشباب، فإنهن يتزين ويخرجن
متبرجات.

فهن: كاسيات بالثياب، عاريات من التقوى حقيقة، ظاهراً وباطناً؛ حيث تبدي
زينتها، ولا تبالي بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصود هن.

وذلك: مشاهد في الوجود منهن، فلو كان عندهم شيء من التقوى لما فعلن ذلك.

أقول: هذا الكلام من الإمام القرطبي المتوفي 671 هـ
ولا أدري لو عاش في عصرنا: ماذا كان يكتب؟
خاصة.. وأن ذلك أصبح ليس في الشابات فقط بل كذلك في القواعد من
النساء...

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أصحاب الأعدار.. وبعض آداب الطعام

بعد أن رفع الله عز وجل الحرج عن [الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا
فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ]
وذلك من باب التيسير عليهن.

بين سبحانه وتعالى هنا رفع الحرج عن أصحاب الأعدار.. من العميان، والعرجان،
والمرضي، في مخالطة الناس والأكل معهم.
وذلك أيضا: من باب التيسير عليهم.

وهذا وذاك... ما تكفلت السورة ببيانه للجماعة الوليدة التي أخذت تشق
طريقها في الوجود على هدى من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ
يقول تبارك وتعالى:

[لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا
عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ]

عن سعيد بن جبير والضحاك: كان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض.. تقدرًا.

وبالتالي : كان العميان والعرجان والمرضي.. يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء
فأن الله هذه الآية (231).

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية.. ترخيصا للمرضي والزمني في الأكل من بيوت من سمي الله تعالى في هذه الآية.

وذلك : أن قوما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم، ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم، أو بعض من سمي الله تعالى في هذه الآية.

فكان أهل الزمانة... يتخرجون من أن يطعموا ذلك الطعام؛ لأنه أطعمهم غير مالكيه، ويقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم.

وقيل نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد (232).

ومن هذه الأقوال في سبب النزول.. يتبين لنا:

أن الأول منهما: يفيد رفع الحرج عن أصحاب الأعذار في مخالطتهم للأصحاء، في تناول الطعام.

وأن الثاني: يفيد رفع الحرج عن أصحاب الأعذار، أيضا، في الأكل من هذه البيوت.

وأن الثالث: يفيد رفع الحرج عن أصحاب الأعذار.. في التخلف عن الجهاد.

وعلي هذا.. فالآية الكريمة.. أفادت هذه الأحكام ، والآداب:

- 1- رفع الحرج عن أصحاب الأعذار.. في التخلف عن الجهاد.
- 2- رفع الحرج عن أصحاب الأعذار.. في تناول الطعام مع الأصحاء.
- 3- رفع الحرج عن أصحاب الأعذار.. في تناول الطعام من البيوت المذكورة.

231 - الواحدي.. أسباب النزول (النور الآية:61) بتصريف يسير

232 - الجمل... الفتوحات الألوهية(النور:61).

- 4- رفع الحرج عن الأشخاص العاديين.. في تناول الطعام من البيوت المذكورة.
- 5- رفع الحرج عن المسلمين.. في الأكل مجتمعين مع بعضهم البعض، أو منفردين، دون قيد بهذا أو ذلك
- 6- الأمر بالسلام والتحية عند دخولهم هذه البيوت.

هذا... ونعيش الآن... بعض نصوص هذه الآية الكريمة.

يقول تعالى:

[لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ] أي:

ليس على أي واحد من هؤلاء .. إثم ومؤاخذة.

ولكن .. ما هذا الحرج الذي رفعته هذه الآية؟

قيل: إن هذا الحرج الذي رفع، هو ما كان بسبب تناول الطعام مع الأصحاء، كما ذكر.

وقيل: إن الله رفع الحرج عن الأعمى، فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج، فيما يشترط في التكليف به من المشي، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج، وعن المريض.. فيما يؤثر المرض في إسقاطه، كالصوم، وشروط الصلاة، وأركانها، والجهاد ، ونحو ذلك.

ثم قال بعد ذلك مبينا.. ليس عليك حرج في أن تأكلوا من بيوتكم.

يقول القرطبي: وهذا معني صحيح، وتفسير بين ، يعضده الشرع والعقل.

ثم يقول: وإلي هذا أشار ابن عطية، فقال: فظاهر الآية ، وأمر الشريعة.. يدل على أن الحرج عنهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر، وتقتضي نيتهم فيه الإتيان بالأكمل، ويقتضي العذر.. أن يقع منهم الأنقص؛ فالحرج مرفوع عنهم في هذا (233).

ونري أن هذا جمع وجيه طيب ومقبول للجميع بين هذه الأقوال في سبب نزول الآية.

ثم يقول تعالى:

[**وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ**] أي لا حرج عليكم أنتم أيها الأصحاء في الأكل أيضا، من هذه البيوت المذكورة.

حيث قيل: إنه لما نزلت آية: [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**]⁽²³⁴⁾.. قالوا: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل.. والطعام من أفضل الأموال؛ فلا يحل إذا لأحد منا أن يأكل عند أحد، وكف الناس عن ذلك.

فأنزل الله تعالى [**وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ** ..] الآية⁽²³⁵⁾.

وعلي هذا.. يصير المعني:

لا حرج ولا إثم أن يأكل المسلم، صاحب عذر، أو غير صاحب عذر، من هذه البيوت الأحد عشر.

بُيُوتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ

أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ

أَوْ صَدِيقِكُمْ

234 - البقرة: 188

235 - الجمل.. الفتوحات الإلهية (النور: 61)

يقول تبارك وتعالى:

[مِنْ بُيُوتِكُمْ] أي لا حرج عليكم ، أن تأكلوا من هذه البيوت .

1- [مِنْ بُيُوتِكُمْ] أي: بيوت أولادكم؛ لأن ولد الرجل : بعضه ، وحكمه حكم نفسه، ولهذا : لم يذكر الأولاد في الآية..أو بيوت أزواجكم؛ لأن الزوجين صاروا كنفس واحدة، فصار بيت المرأة كبيت الزوج.

2- [أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ]

قال بعض العلماء : هذا إذا أذنوا له في ذلك.

وقال آخرون: أذنوا له، أو لم يأذنوا..فله أن يأكل ؛ لأن القرابة التي بينهم هي إذن منهم.

وذلك : لأن في تلك القرابة عطفًا، تسمح النفوس منهم بذلك العطف..أن يأكل هذا من شبيئهم، ويسروا بذلك إذا علموا.

قال ابن العربي : أباح لنا الأكل من جهة النسب، ومن غير استئذان: إذا كان الطعام مبدولًا، أي ليس في شيء يمنع من نواله.

أما إذا كان محوزًا دونهم: لم يكن لهم أخذه، بدون إذن

كما لا يجوز لهم..أخذ ما ليس بمأكول، وإن كان غير محوز عنهم، إلا بإذن منهم(236).

[أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ] أي: مما تحت أيديكم وتصرفكم، من: بستان، أو ماشية..وكالة، أو حفظًا.

وقالوا: هو وكيل الرجل، وقيمه على ضيعته وماشيته..فلا بأس عليه أن يأكل من ثمر بستان، ويشرب من لبن ماشيته، ولا يحمل ولا يدخر(237).

وقال ابن جرير: هو الزمن...يسلم إليه مفتاح البيت، ويؤذن له بالتصرف فيه.

236 - القرطبي..الجامع لأحكام القرآن (النور:61)

237 - الألوسي..روح المعاني(النور:61)

وعلي هذا يحمل ما ذكره الواحدي من سبب النزول.. حينما قال : أنزلت هذه الآية، في أناس كانوا إذا خرجوا مع النبي P : وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض، وعند أقاربهم، وكانوا يأمرؤهم أن يأكلوا مما في بيوتهم، إذا احتاجوا إلى ذلك. فكانوا: لا يأكلون منها..

ويقولون: نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة(238).

[**أَوْ صَدِيقِكُمْ**] أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها، إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم، ولا يكرهون ذلك. هذا..

وبعد أن بين الله البيوت التي يؤكل منها بلا حرج: بين حكما آخر، يتعلق بكيفيات الأكل، وهيئاته، التي أباحها الشارع، بعد أن كانوا يتخرجون منها، على عادتهم في الجاهلية.

يقول تعالى:

[**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ**] أي: إثم وحرج.

[**أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا**] أي: في أن تأكلوا مجتمعين، أو متفرقين.

والمقصود: إباحة الأكل جميعا، وإن اختلفت أحوالهم في هذا الأكل.

وقد صار ذلك: سنة في الجماعات التي تدعي إلى الطعام، في الولائم، وفي غير ذلك(239).

وقد نزلت هذه الآية.. علي ما روي عن ابن عباس: في بني ليث بن عمرو ابن كنانة.. تخرجوا أن يأكلوا طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا يأكل، ويمكث يومه حتى يجد ضيفا يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكله: لم يأكل شيئا، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه، لا يتناوله من الصباح حتى المساء(240).

238 - أسباب النزول(النور:61)

239 - القرطبي.. نفس المصدر.

240 - أسباب النزول(النور:61)

وعن عكرمة وأبي صالح: أنها نزلت في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف، لا يأكلون إلا معه، فرخص لهم: أن يأكلوا كيف شاؤوا(241).

وقيل: كانوا يأكلوا فرادي خوفا أن يزيد أحدهم على الآخر في الأكل، أو أن يحصل من الاجتماع ما ينفر، أو يؤذي.

فنزلت الآية: لنفي وجوب ذلك.

وأيا ما كان: فالعبرة.. بعموم اللفظ لا بخصوص السبب(242).

بمعني: أنها أباحت الأكل للناس مجتمعين، أو منفردين، دون حرج عليهم في هذا أو ذلك.

وإن كان الأكل مع الجماعة: أفضل وأبرك.

فقد روي الإمام أحمد بسنده.. أن رجلا قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع قال: "لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه، يبارك لكم فيه".

وروي ابن ماجة بسنده.. عن رسول الله ﷺ أنه قال: "كلوا جميعا، ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة.

ثم..

ثم.. شرع ربنا تبارك وتعالى: في بيان الأدب الذي ينبغي رعايته عند مباشرة ما رخص فيه بعد بيان الرخصة فيه(243).

فقال سبحانه وتعالى:

[**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا**] أي من البيوت المذكورة؛ لتأكلوا

[**فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ**] أي: فابدؤوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة.

وفي التعبير عنهم بـ (أنفسكم) تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من تلك البيوت المعدودة، وأن ذلك إنما كان.. لأنها بالنسبة إلى الداخل، كبيت نفسه، للقرابة ونحوها.

241 - أسباب النزول (النور: 61)

242 - الألوسي.. روح المعاني (النور: 61)

243 - الألوسي.. روح المعاني (النور: 61)

[**تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**] أي: ثابتة بأمره، مشروعة من لدنه سبحانه.. أو لأن التسليم والتحية: طلب سلامة وحياء للمسلم عليه.

[**مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ**] وصفها بالبركة والطيب، لأنها دعوة مؤمن لمؤمن.. يرجى بها من الله زيادة الخير، وطيب الرزق. وهكذا...

لما ذكر تعالى ما في هذه السورة، وهذه الآية بالطبع، من القواعد والآداب والتعاليم المحكمة، والشرائع المتقنة: نبه عز وجل عباده.. علي أنه يبين لهم الآيات بيانا شافيا؛ ليتدبروها، ويعقلوها.

فقال: [**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**]

وفي ذلك: تفخيم لهذه الأحكام.. وحض على العمل بموجبها؛ حتى ينال المسلم بذلك سعادة الدارين.

حسن الختام

ذكر بعض العلماء: أنه سبحانه.. بدأ السورة بقوله تعالى [**وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ**

بَيِّنَاتٍ] وختمها بقوله عز وجل [**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ**] ..!!

ثم جعل ختام الختم.. قوله تعالى:

[**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى**

يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ

شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]

دلالة على أن ملاك ذلك، كله، والمنافع بتلك الآيات اجمع: من سلم نفسه لصاحب الشريعة، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، كالميت بين يدي الغاسل، لا يحجم ولا يقدم دون إشارته p (244).

وقد نزلت هذه الآيات : في المنافقين، الذين كانوا يعرض بهم النبي p في مجالسه وخطبه (245).

والمعني:

[**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**] أي: المؤمنون الكاملون في إيمانهم.. هم الذين آمنوا بالله ورسوله.

[**وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ**] أي: كانوا مع الرسول في أمر يجمع له الناس، كالجهاد، وتديير أمر الحرب، وكل اجتماع في الله، حتى الجمعة والعديد.
ماذا يفعلون..؟

[**لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ**] أي: لعذر طارئ، ويأذن لهم في الذهاب.
ويلاحظ: أن هذا الاستئذان جاء وصفا ثالثا للمؤمنين، الكاملين، في إيمانهم، بعد الإيمان بالله والإيمان برسوله ρ

وهذا فيه ما فيه.. من خطورة ذهاب الذهاب دون إذن من النبي ρ إذا كانوا معه على أمر جامع

ثم... أكد المولي أهمية هذا الاستئذان من النبي ρ وخطورة المخالفة في الذهاب عن اجتماعه، دون إذن منه ρ .

وهو في الوقت ذاته إعلاء لشأن المؤمنين المتصفين بهذه الصفات الثلاث: الإيمان بالله تعالى، الإيمان برسوله ρ ، التسليم الكامل لمحمد ρ وعدم الذهاب من مجلسه الجامع دون إذن منه، إذ يقول تبارك وتعالى بأسلوب آخر:

[**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**]

وهذا في الحقيقة: مصداق لصحة الإيمانين السابقين، حيث جعل المستأذنين..هم المؤمنون عكس الأول.

وبعد أن بين ربنا عز وجل، موقف المؤمنين من هذا الموضوع..يبين موقف النبي ρ حيث يقول:

[**فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ**] أي: إذا حدث لهم ما يجعلهم يستأذنونك، لبعض أمرهم المهمل، ويفعلون!

[فَأَذَّنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ] وهذا: تفويض الأمر إلى رأيه عليه الصلاة والسلام.
[وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ اللَّهُ] حيث إن الاستئذان وإن كان لعذر قوي: لا يخلو عن شائبة وكان المنفقون: إذا رقي المصطفى p المنبر.. نظروا يمينا وشمالا، ويخرجون واحداً واحداً، إلى أن يذهبوا جميعا، ولم يكن أثقل عليهم من يوم الجمعة، وحضور الجماعة.
وقيل: كانوا يتسللون في الجهاد؛ رجوعا عنه، يلوذ بعضهم ببعض (246).

ثم..

ثم هدد المخالفين لأمره p.. قائلا:

[فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ] أي: فلينتبهه، وليخش الذين يخالفون أمر رسول الله p وشريعة الله باطنا وظاهرا.

يقول ابن كثير: أي عن أمر رسول الله p وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته، وشريعته. فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله..

فما وافق ذلك : قبل

وما خالفه: فهو مردود على قائله وفاعله، كائنا من كان فقد ورد في الصحيح " من عمل عملا ليس عليه أمرنا: فهو رد" (247).

أي مردود عليه، وغير مقبول منه

ثم بين عز وجل جزاء الذين يخالفون عن أمره p.. بقوله.

[أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ] أي: محنة في الدنيا، أو قتل، أو زلازل وأهوال، أو تسليط سلطان

جائر، أو قسوة القلب عن معرفة الرب، أو إسباغ النعم استدراجا (248).

[أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] أي: مؤلم شديد.

ولذا: يجب امتثال أمره p وتحريم مخالفته (249).

246 - القرطبي.. الجامع لأحكام القرآن (النور: 63)

247 - البخاري..ك الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح..الخ، مسلم..ك مسلم...ك الأفضية باب نقض الأحكام ..الخ.

248 - النسفي..(النور: 63)

249 - القرطبي.. الجامع لأحكام القرآن(النور: 63)

وإذا كان ما مضي من توجيه وإرشاد وتحذير: هو من الله تعالى.. فينبغي . بالتالي . المسارعة
في الامتثال، واجتناب المخالفة ويفهم هذا من قوله تعالى:

[**أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**]

نعم...

[**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**] من الموجودات بأسرها، خلقا وملكا وتصرفا، إيجادا
وإعداما، بدءا وإعادة.. لا لأحد غيره، شركة أو استقلالا.

[**قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**] أي: يعلم ما أنتم عليه في جميع أحوالكم: [**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**] (250).

وهذا الخطاب.. وإن كان للجميع : فإن التهديد فيه للمنافقين، أي: كيف تخفي عليه
أحوال المنافقين، وإن كانوا يهدون أنفسهم في سترها وإخفائها.

[**وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ**] أي: يوم ترجع الخلائق كلها إلى جزائه في يوم القيامة.

[**فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا**] أي: بما أظهروا وأبطنوا من سوء أعمالهم، ويجاريهم عليها.

[**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**] لا يخفي عليه شيء من الأشياء.

وبعد...

يقول الأستاذ سعيد حوى: فقد اجتمعت هذه السورة.. خصائص القرآن كلها، على
أوضح ما يكون ذلك.

ففيه: البيان والمثل والموعظة، والهداية، والحق، والعدل، وفيها: الحكم التكليفي، والتعليل،
والتذكير.. إلى غير ذلك: مما هو من خصائص القرآن (251).

نماذج لأسئلة التفسير

السؤال الأول:

يقول تعالى (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا ...)[النور:2].
أجب عما يلي :

- 1 - أكمل من حفظك هذه الآية الكريمة
- 2 - بين معاني هذه الكلمات : فاجلدوا - رأفة - دين الله - يشهد - عذابهما
- 3 - ظاهر الآية يفيد .. أن حكم الجلد لعموم الزناة.
ولكن أجمع العلماء : على أنه خاص بغير المحصن ، وأما المحسن فحده الرجم.
بين : أدلة ثبوت حد الرجم.

السؤال الثاني:

يقول تعالى (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك علي المؤمنين) [النور3]

- 1 – ما سبب نزول هذه الآية..؟
- 2 – بين معني هذه الآية.
- 3 – ما صلة هذه الآية بالتي قبلها ..؟
- 4- لم قدم المولي سبحانه في هذه الآية (الزاني) علي (الزانية) عكس ما كان في الآية السابقة ..؟
- 5- لم شدد الإسلام في عقوبة جريمة الزني على هذا النحو..؟

السؤال الثالث:

يقول تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ...) الآيات

- 1 – اكتب هذه الآية وثلاث آيات قبلها وآية واحدة بعدها..؟
- 2 – بين معاني هذه الكلمات : يرمون – المحصنات – الفاسقون .
- 3- ما صلة هذه الآية بالآيات التي قبلها في هذه السورة الكريمة..؟
- 4 – بين على ضوء ما درست : أثر توبة القاذف في الحكم الذي تفيده الآية السابقة على الاستثناء ، كما يرى الفقهاء .

السؤال الرابع:

يقول تعالى (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ...) [النور:4-5].

- أجب – مستعينا بالله تعالى – عما يلي :
- 1- أكمل الآيتين من حفظك.
- 2- بين معاني هذه الكلمات : يرمون - المحصنات - الفاسقون - تابوا - وأصلحوا.
- 3 - بين معني هاتين الآيتين إجمالاً.

- 4- هل الحكم في الآيتين خاص بالرجال، أو بالنساء، أو عام فيهما؟
- 5- يقول العلماء : لابد من توافر تسعة شروط لتنفيذ حد القذف..بين هذه الشروط وفق ما درست ؟

السؤال الخامس :

يقول تعالى (وَالَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ...) [النور:6-10].

- 15 - بين معاني هذه الكلمات : يرمون - شهداء - والخامسة - يدرأ - العذاب
- 16 - ما سبب نزول هذه الآيات الكريمة؟
- 17 - ما المعنى الإجمالي لهذه الآيات الكريمة ..؟
- 18 - هذه الآيات خاصة بالملاعنة .. فما كيفية هذه الملاعنة ..؟
- 19 - بين النتائج المترتبة على الملاعنة بين الزوجين.
- 20 - لم خص الله تعالى النساء بالغضب (أن غضب الله عليها) ولم يستعمل اللعن في حقهن ..؟
- 21 - يقول العلماء : يحتاج اللعان إلي أربعة أشياء - وقد وفقك الله إلي معرفتها ودراستها - بينها تفصيلا .

السؤال السادس :

يقول تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا ...) [النور: 27 - 29]

- أجب عما يلي:
- أ) اكمل هذه الآيات ، حتي نهاية الآية 29
- ب) بين معاني هذه الكلمات : تستأنسوا - أحدا - أزكى - جناح - متاع .
- ت) ما سبب نزول هذه الآيات الكريمة؟
- ث) اكتب : معاني هذه الآيات.؟
- ج) ما كيفية الاستئذان - كما وضحته السنة النبوية - في دخول البيوت؟

السؤال السابع:

يقول تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي
الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...) الآيات [النور : 55 - 57]

أجب - مستعينا بالله - عما يلي:

- 1 - أكمل هذه الآيات الثلاث.
- 2 - بين معاني هذه الكلمات : وعد - يستخلفنهم في الأرض - الفاسقون - لا تحسبن - معجزين.
- 3 - هذه الآيات تتضمن تسعة أشياء ، تخرج الأمة من أزمته وتوصلها إلى نهضتها. بين هذه الأشياء بإيجاز على ضوء ما درست؟